البديع

في ضوء أساليب القرآن الكريم

الدكتور عبد الفتاح لاشين

دار الفكر العربي

البديع

منزلة علوم البلاغة من علوم العربية منزلة الروح من الجسد، فلا فضيلة لكلام على آخر إلا بما يكون فيه من لطائف الفصاحة والبلاغة، وخصائص المعاني والبيان، لا سيما وأننا بها نعرف إعجاز القرآن، وفضائل التنزيل، وندرك بها فصاحة أسلوبه، وانسجام تأليفه... والجاهل بأسرار البلاغة، والمحروم من ثمارها، لا يعرف إعجاز القرآن الكريم إلا عن تقليد ومحاكاة، فخطرها عظيم، وفضلها عميم؛ ولهذا اتجهت إليها أنظار العلماء من قديم.

وبين ضَفَّتي هذا الكتاب (علم البيان) قد توخينا فيه الوضوح والبيان، والبعد عن وعورة الأسلوب، وقسوة التعقيد، وكان اختيارنا لنماذج عديدة من القرآن الكريم، والحديث الشريف، والكلام المأثور، والشعر القديم والحديث، ونبين ما في أساليبها من جمال وجلال، ونرشد إلى ما تحتويه من ضروب القول، وفنون التعبير، حتى نربي ملكة النقد الصحيح، ونُنَمِّي فطرة الذوق السليم.



الدكتور عبد الفتاح لاشين

- ماجستير في البلاغة والنقد سنة ١٩٦٩ من جامعة الأزهر.
- دكتوراة في البلاغة والنقد سنة ١٩٧٣ من جامعة الأزهر.
- أستاذ متفرغ بكلية الدراسات الإسلامية والعربية فرع البنات جامعة الأزهر - القاهرة.
- ناقش وأشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراة.
- أعير إلى عدة جامعات في الدول العربية والأفريقية.
- له العديد من المؤلفات في مجال الدراسات القرآنية والبلاغة والنقد.

I.S.B.N. 977-10-1395-5

9 7 7 1 0 0 0 1 1 7 1

تطلب جميع منشوراتنا من وكيلنا الوحيد بالكويت والجزائر
دار الكتاب الحديث

البديع

في ضوء أساليب القرآن

تأليف
الدكتور عبد الفتاح لاشين
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
فرع البنات بالقاهرة - جامعة الأزهر

١٤٣٣هـ/٢٠١٢م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

٢٢٥,٦ عبد الفتاح لاشين.

ف ت ب د البديع فى ضوء أساليب القرآن/ تأليف عبد الفتاح لاشين . ـ القاهرة: دار الفكر العربى؛ ٢٠١٢م.

٢٢٣ص؛ ٢٤سم .

بيليوجرافية: ص٢١٥-٢١٩.

تدمك: ٣ - ١١٧٢- ١٠ - ٩٧٧.

١ - القرآن الكريم، بديع. ٢- القرآن الكريم، بلاغة.

أ- العنوان.

جمع إلكترونى وطباعة

البردى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عنى البلاغيون والنقاد باستخلاص فنون البديع، وإضافة الجديد إلى فنونه، وقد يكون من بينها المتكلف الذى لا يؤدى رسالته فى رقى الأسلوب، وجمال العبارة، كما اشتغلوا بتجويد التعاريف، وذكر الأقسام، وتحكيم العقل فى عدها، وتكلفوا فى الأمثلة، فما لم يجدوا له مثالا عمدوا إلى وضع مثال صناعى له، لا ينبع من عاطفة، ولا يصدر عن إحساس.

وقد شغلتهم التعاريف والأقسام عن الوقوف أمام المحسن البديعى يبينون أسرار جماله، ويظهرون للدارسين هذه الأسرار، مما جعل دراسة البديع جافة لا تؤثر فى النفس، ولا تستولى على الوجدان، مع أنها ألوان قصدها الشعراء ليملكوا بها القلوب، ويؤثروا بها فى عواطف الناس.

ومر البديع بعصور كانت ألوانه هدفا للشعراء، يسرفون فى استخدامها، ويقصدون إليه عمدا، ظنا منهم أنهم يحسنون صنعا، ويستكثرون من ألوان الجمال، وفاتهم أنهم بذلك يُغَشُّون المعنى بالظلمة، ويسترونه بالعماية، كما شغلهم تطلب البديع عن النظر فى قيمة المعنى، ولذلك زهد الناس فى البديع، وآثروا البعد عنه.

لذلك رأينا أن ندرس فنون البديع واقفين عند ألوانه الجيدة، نبين سر جماله، ضاربين صفحا عن كل مثال صنع صنعا ليصور لونا من ألوانه.

وكانت عنايتنا بألوان البديع فى القرآن الكريم، ووجَّهْتُ همتنا إلى استخراجه من الكتاب العزيز، وبيان سر أصالته فى الجملة، وملاءمته للأسلوب، ومزيته فى المعنى.

فليس وجوده فى القرآن حلية مُزَيِّنة، ولا عرضا يستغنى عنه، ولا تابعا ذليلا لما هو أصل له، بل سنراه أصلا برأسه يَخْتل المعنى بزواله، ويتأثر الأسلوب باختلاله.

فليست ألوان البديع تأتى لمناسبة لفظية مرغوبة، ولا لحلية حسية مطلوبة، وإنما تنطوى ألوانه على مقاصد معنوية، وجمال داخلى، تتكشف للباحث الموفق.

وسنرى فى هذا البحث تعزيزا لهذا الاتجاه، وتقوية لهذا الغرض، ودفعا لتلك المسيرة، آملين أن يكون الوضوح غايتنا، والتوفيق رائدنا.

وقد جعلناه فى بابين:

الباب الأول: المحسنات البديعية - وجاء فى فصلين:

الفصل الأول: المحسنات المعنوية.

الفصل الثانى: المحسنات اللفظية.

الباب الثانى: ملحقات لعلم البديع.

أولا: البديع بين الذاتية والعرضية.

ثانيا: البديعيات.

ثالثا: السرقات الشعرية.

والله نسأله التوفيق والسداد، فهو نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

القاهرة فى ١٢ من ربيع الثانى ١٤١٩هـ

٦ من أغسطس ١٩٩٨م

مصطلح «البديع»
لمحة عن تطوره

جاء لفظ «البديع» بمعنى الجديد والمخترع، قال حسان بن ثابت[1]:

قـومٌ إذا حـاربـوا ضـرُّوا عـدوَّهـمُ   أو حاولوا النفعَ فى أشيـاعهم نَفَعُوا
سـجيَّـةٌ تلـك فيـهم غيرُ مـحْـدَثَةٍ   إن الخَـلائق فـاعلـم شـرُّها البِـدَعُ

وورد فى القرآن الكريم بمعنى: جمال المنشأ وحسن البدء على غير مثال، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام]، ويقول: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة].

كما ورد فى الحديث الشريف بمعنى: الطيب والجديد، كقوله - عليه الصلاة والسلام - فى وصف تهامة: «إن تهامة كبديع العسل حلو أوله وحلو آخره» والبديع: الزق الجديد، شبه به تهامة لطيب هوائها، وأنه لا يتغير كما أن العسل لا يتغير[2].

وتجد هذه اللفظة تتردد فى العصر الأموى بهذا المعنى أيضا، كقول الفرذدق:

أَبـتْ نـاقـتـى إلا زيادًا ورغـبـَتـى   ومـا الجـودُ من أَخْـلاقـه بِبَـديعِ[3]

---

(١) ديوان حسان، البدع: المراد مستحدثات الأخلاق لا ما هو ثابت كالغرائز.

(٢) النهاية فى غريب الحديث ص ١٠٦، ١٠٧.

(٣) ديوانه ٣٩٣.

وفى المعاجم اللغوية نجدها تدور حول الجديد والمحدث والمخترع[1].

* * *

والألوان البديعية جاءت فى الشعر القديم والنثر عفو الخاطر ودون إعمال الفكر، وكانت مما يستدعيه المعنى استدعاء، وكانت تصدر عن الشعراء عن فطرة وسليقة لا تعمُّل فيها ولا تكلُّف، وقد زخرت النصوص القديمة والمخضرمة بتلك الصور دون أن يَعْرِفَ أصحابها أسماءها ولا أقسامها.

فقد بالغ امرؤ القيس، فقال فى وصف فرسه:

فعادى عِداءً بين ثَوْرٍ ونعْجةٍ   دراكًا فلم يُنْضحْ بماءٍ فيُغسَلُ

وردّ أعجاز الكلام على صدره، فقال:

إذا المرءُ لم يخزُنْ عليه لِسانُه   فليس على شيءٍ سواه بخَزّانِ

ويطابق زهير، فيقول:

ليثٌ بعثَّر[2] يصطادُ الرِّجالَ إذا   ما اللَّيث كذَّب عن أقرانه صَدقا

وذَيّل، فقال:

ولستَ بمستَبْقٍ أخًا لا تلُمُّهُ   على شَعَثٍ، أىُّ الرِّجال المهذَّبُ؟

واستطرد حسان بن ثابت، فقال:

إن كنْتِ كاذبةَ الذى حدَّثِتنى   فنجوتِ منْجى الحارثِ بنِ هشامِ
ترك الأحبَّةَ أنْ يقاتِل دونهم   ونَجَا برأسِ طِمِرَّةٍ ولجامِ[3]

فخرج من الغزل إلى هجاء الحارث بن هشام.

---

(١) انظر القاموس، اللسان، تاج العروس، مادة بدع.

(٢) عثر: مكان.

(٣) الطمرة: الفرس الكريم، الحارث بن هشام، هو أخو أبى جهل، أسلم يوم الفتح وتوفى يوم اليرموك بالشام.

وقد بالغ، فقال:

لنا الجفنَاتُ الغُرُّ يلمعْنَ فى الضُّحى وأَسيَافنَا يقْطرْنَ من نجْدَةٍ دمَا[1]

واحترس طرفة بن العبد، فقال:

فسقَى ديارك - غيْرَ مُفسدِها صوبُ الغمامِ وديمةٍ تَهْمِى

وهكذا... نجد الصور البديعية موجودة عند الشعراء القدامى من غير أن يعرفوا لها مسميات.

وظل الحال كذلك حتى قُضِى على الدولة الأموية.

* * *

وجاء العصر العباسى، وقد جددت الحضارة المادية والعقلية من رُواء الشعر، فأمدته بالخيال الخصب، والفكر العميق، والمعنى الدقيق، ولونته بألوان زاهية من التشبيه، والاستعارة، وبديع التصوير، وجميل التمثيل، وصبغته بأصباغ طريفة من الثقافة والفلسفة، ومزجته بحكمة الهنود، وأدب الفرس، وقد تنبه الشعراء العباسيون إلى ما فى شعر القدماء من طرائف الصنعة البديعية، فتناولوا البديع، تارة مقتصدين كالبحترى وابن المعتز، وتارة تناولوه إلى درجة الإفراط كأبى تمام، مما جعل الجاحظ (ت٢٥٥هـ) يضيف إلى معنى الجِدَّة والطرافة الاستعمالَ العلميَّ، فقد روَى قول الأشهب بن رُميلة:

هُمُ ساعدُ الدهْرِ الذى يُتَّقِى به وما خير كفٍّ لا تَنُوءُ بساعدِ

ثم علق عليه بقوله: قوله: «هم ساعد الدهر» إنما هو مَثلٌ، وهذا الذى تسميه الرواة البديع، وقد قال الراعى:

هُمُ كاهِلُ الدهر الذى يتَّقى به ومَنِكبُه، إن كان للدهر مَنكِبُ

---

(١) الجفنات: جمع جفنة، وهى قصعة يوضع فيها الطعام.

وقد جاء فى الحديث «موسى الله أحَدّ، وساعد الله أشَدّ»، والبديع مقصور على العرب. ومن أجلـه فاقت لغتهم كل لغة، وأربت عـلى كل لسان، والراعى كثير البديع فى شعره، وبشار حسن البديع، والعتابى يذهب شعره فى البديع(١).

فنرى الجاحظ يطلق لفظ «البديع» على طريف الاستعارة فى «ساعد الدهر» ويروى ذلك عن الرواة - أى رواة الشعـر - فالتسمية ليـست له، بل هى من رواة الأدب، وظهرت أول ما ظهرت على لسان الشعراء.

نشأة البديع:

أشار الجاحظ إلى نشأة البديع وإلى أول من افـترعه، فقال: «ومن الخطباء الشعراء مـمن كان يجمع الخطـابة والشعر الجيـد، والرسائل الفاخرة، مـع البيان الحسن، كلثوم بن عمرو العتابى، وكنيـته أبو عمرو، وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من المولدين، كنحو منصور النمرى، ومسلم بن الـوليد الأنصارى، وأشبـاههما، وكان العـتابى يحتذى حـذو بشار فى البديع، ولـم يكن فى المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة»(٢).

وفى قول الـجاحظ ما يفـيد أن البديـع نشأ فى الأدب العـربى من التفـكير المختلـط والمجهود المشتـرك بين العرب والفرس، ولـم يكن خالـصا من الفرس وحدهم الذين يعرفون بميلـهم إلى التعبير باللون(٣)، إذ اختلاط الأسمـاء العربية وهى: العتابى، والنمرى، وابن هرمة، مع الأسماء الفارسية وهى: بشار، ومسلم ابن الوليد، يدل على أنه مـذهب عباسى تعاونت فيه طوائف مـن الشعراء العرب مع الشعراء الفرس.

---

(١) البيان والتبيين (جـ٤/ ٥٦).

(٢) المصدر نفسه (جـ ١/ ٥١).

(٣) النثر الفنى (جـ١/ ٤٤).

على أن العباسيين الذين عاصروا مولد البديع كانوا يردُّونه إلى مصادر عربية خالصة، كما فى قول الجاحظ السابق «والبديع مقصور على العرب. . . إلخ» وكما يدل عليه ما كتبه ابن المعتز فى مقدمة كتابه «البديع» - الآتى بيانها بعد سطور- .

ففى هذا العصر انتشرت الصور البديعية الطريفة فى الأساليب وعلى ألسنة الشعراء، فأتى ابن المعتز (ت٢٩٦هـ) وجمعها فى كتابه «البديع»، وذكر أن هذه التسمية من وضع الرواة والشعراء المولدين، فقال فى مقدمة كتابه: «قد قدَّمنا فى أبواب كتابنا هذا بعضَ ما وجدنا فى القرآن، واللغة، وأحاديث رسول الله ﷺ وكلام الصحابة، والأعراب، وغيرهم، وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون «البديع» ليعلم أن بشارا، ومسلما، وأبا نواس، ومن تقيلهم، وسلك سبيلهم، لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم»(١).

فابن المعتز جعل «البديع» خمسة أنواع: الاستعارة، التجنيس، المطابقة، رد أعجاز الكلام على ما تقدمها، المذهب الكلامى. ثم ذكر بعض محاسن الكلام، وعد منها ثلاثة عشر نوعا - الالتفات - الاعتراض، الرجوع، حسن الخروج، تأكيد المدح ممايشبه الذم، تجاهل العارف، الهزل يراد به الجد، حسن التضمين، الكناية، الإفراط فى الصفة، حسن التشبيه، إعنات الشاعر نفسه، حسن الابتداء.

وهناك سؤال لابد أن يخطر لكل باحث في الطريقة العلمية التى سلكها «ابن المعتز»، لماذا قسم كتابه إلى قسمين: اختص أحدهما باسم «البديع» واختص الثانى باسم «محاسن الشعر أو الكلام»، وما الداعى إلى هذا التقسيم؟(٢).

---

(١) البديع (ص١).

(٢) بلاغة العرب بين أرسطو واليونان (١٣٤).

يجيب أحد المعاصرين، ويجلى السر فى هذا التقسيم، فيقول[1]:

«ذلك أن الأصناف الخمسة الأولى عرفها الشعراء، وعرفها الجاحظ قبل ابن المعتز، فالاستعارة، والتطبيق، والتجنيس، ورد الأعجاز على ما تقدمها، والمذهب الكلامى، هى أوائل أصناف البديع التى ظهرت فى شعر الشعراء، من أمثال، مسلم، والعتابى، وبشار، وأبى نواس، وغيرهم، فليس لابن المعتز فى العثور عليها من فضل إلا ردها إلى الشعر القديم، ليرد على الشعراء المجددين دعواهم فى التجديد.

أما صنوف القسم الثانى فمن اختراعه وحده، وقف عليها لـمَّا تتبع أشعار القدامى والمحدثين، ودوّنها قبل أن يدونها غيره، وأطلق عليها أسماء لم تكن كلها معروفة قبله فى مصطلحات البلاغة، وفى مصطلحات البلاغيين، لذلك فَصَل بين القسمين ليقول: هذا لكم وهذا لى، وهذا منكم، وهذا منى، وهو بهذا يُدِل بأفضليته فى السبق، فيقول:

«وما جمع فنون البديع، وما سبقنى إليه أحد».

ويرد على اعتراض توقعه من خصوم هذا التأليف الجديد فيقول فى مقدمة كتابه: «وكأنى بالمعاند المغرم بالاعتراض على الفضائل قد قال: البديع أكثر من هذا.. لأن البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم.. وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين، ويعلم الناظر أنّا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة؛ اختيارا من غير جهل بمحاسن الكلام، ولا ضيق فى المعرفة، فمن أحب أن يقتدى بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا إلى البديع، ولم يأت غير رأينا فله اختياره».

فابن المعتز هو أول من جمع الفنون البديعية تحت اسم «البديع» وهى التى تدخل الآن ضمن علوم البلاغة الثلاثة.

---

(١) بلاغة العرب بين أرسطو واليونان (١٣٤).

ونحن إذا ذهبنا نتحسس زعيم الصنعة البديعية فى عصر المحدثين على ضوء كلام الجاحظ وابن المعتز، نرى أن زعيم هذه الحركة، وممهد ذلك الطريق هو بشار بن برد، وهما وإن كانا يختلفان فى التصريح بأسماء رجالها، فيَعُدّ الجاحظ: العتابى، والنمرى، ومسلم، وابن هرمة، ويذكر ابن المعتز: بشارا (ت ١٦٧هـ)، ومسلما (ت ٢٠٨هـ)، وأبا نواس، لكننا إذا تأملنا نصيهما، فقرأنا فى نص الجاحظ قوله: «كنحو منصور النمرى، ومسلم بن الوليد الأنصارى، وأشباههما». وقرأنا فى نص ابن المعتز قوله: «ليعلم أن بشارا، ومسلما، وأبا نواس، ومن تقيلهم، وسلك سبيلهم»؛ تلاقى النصان وذهب ما بينهما من خلاف لقبولهما كل من جنح إلى هذا المذهب وورَد وِرْده.

* * *

ولما جاء قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) أورد سبعا وعشرين نوعا[1]، توارد مع ابن المعتز فى سبعة أنواع، وانفرد بعشرين:

وابتكر أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٤هـ)، على ما سبق ستة أنواع، وأطلق كلمة «البديع» على أنواع، أخرج منها التشبيه، والإيجاز، والإطناب، والسجع، والازدواج، بينما عَدَّ الاستعارة، والمجاز، من البديع[2]، فمدلول «البديع» عنده أخذ فى التخصص.

وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت كلمة «البديع» كلمة عامة تتسع لكل أنواع علوم البلاغة بحسب وضعها الأخير «المعانى، والبيان، والبديع» عند علماء البلاغة كابن سنان (ت٤٦٦هـ)، وعبد القاهر (ت ٤٧١هـ)، فقد أطلق «البديع»

(١) نقد الشعر ٣٨ وما بعدها، قدامة والنقد الأدبى ٣٧٠.

(٢) الصناعتين ١٨٠، ٢٥٠.

على التشبيه، والتمثيل، والاستعارة، والتطبيق[1]، وهكذا لاتزال كلمة «البديع» تط إطلاقا عاما على هذه الأنواع المشتركة من علوم البلاغة فى وضعها الأخير.

* * *

والسكاكى (ت ٦٢٦هـ) أول من أطلق «علم المعانى» على المباحث التى بحثها فيه، وأول من أطلق على مباحث التشبيه، والمجاز، والكناية اسم «علم البيان»، وأول من حكم على «علم البيان» بأنه متنزل من «علم المعانى» منزلة المركب من المفرد، كما أنه أول من فرق بين هذين العلمين على هذا الوجه من الضبط والتحديد.

وبعد أن خلص السكاكى من بيان هذين العلمين فى كتابه المفتاح، قال فى شأن البديع:

«وإذ تقرر أن البلاغة بمرجعيها، وأن الفصاحة بنوعيها، مما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه أعلى درجات التحسين، فها هنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها، وهى قسمان: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ»[2].

فالسكاكى وإن فَصَل بين علمى «المعانى والبيان» وأطلق عليهما هذين الاسمين، لم يعرض لألوان البديع على أنها علم مستقل عن العلمين، بل إنها تشارك مسائلهما فى تزيين الكلام بأبهى الحلل، والوصول به إلى أعلى درجات التحسين[3].

---

(١) الأسرار ١٤.

(٢) المفتاح ٢٠٠.

(٣) الصبغ البديعى ٢٥٢.

وجاء بدر الدين بن مالك (ت٦٨٦هـ) فسمى هذه المحسنات «علم البديع» فى كتابه «المصباح»، وبذلك هيأ لأن تصبح البلاغة متضمنة ثلاثة علوم[١].

وجاء الخطيب القزوينى (ت٧٣٩هـ)، فعرفه بقوله: «هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة»، وبذلك أخذت علوم البلاغة وضعها الأخير، فتحددت موضوعاتها، وانفصلت أقسامها «المعانى والبيان والبديع» وعلى ذلك سارت الدراسة البلاغية إلى الآن.

والخطيب بهذا قضى على ألوان البديع بأن تكون حُلَى مُزَيِّنة، تكسو الكلام بهجة بعد رعاية المطابقة، ووضوح الدلالة، وأنها عَرَضِيَّة وليست ذَاتِيَّة، كما جعلها ذيلا وذنبا للعلمين «المعانى والبيان»، فكان بهذا العمل أول الجانين على ألوان البديع ممن ألّفوا فى البلاغة بوضعها هذا الوضع الشائن البغيض، فقد اهتضمها حقها، وأجحف منزلتها حينما جعلها ذيلا من ذيول البلاغة، وذنَبًا من أذنابها، لا تجىء إلا تابعة، ولا تسمو إلى آفاق الذاتية والأصالة، اقرأ قوله فى التلخيص: «وتتبعها وجوه أخرى تورث الكلام حسنا»[٣].

* * *

وما دمنا بصدد «علم البديع»، ومن بدأ بتسميته، ومن جعله فى هذا الموضع الشائن، ومن حكم عليه بالذيلية والتبعية؛ فلا بد أن نتعرض لما قاله أحد الباحثين[٤]:

«. . . وبذلك كان الزمخشرى أول من ميز بين العلمين - المعانى والبيان -

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ ٣١٥.

(٢) تلخيص المفتاح ٣١٥.

(٣) الصبغ البديعى ٣٠٤.

(٤) انظر البلاغة تطور وتاريخ ٢٢٢، ٢٦٥.

فجعل لكل منهما مباحثه الخاصة واستقلاله الذى يُشَخِّصه، ونقل عنه السَّيد الجرجانى أنه لم يكن يعُدُّ البديع علما مستقلا، بل كان يراه ذيلا لعلمى المعانى والبيان، وسنرى السكاكى يتأثر به فى ذلك».

وقد بينت[1] أن الزمخشرى لم يميز بين العلمين - المعانى والبيان - ولم يجعل لكل منهما مباحثه الخاصة واستقلاله الذى يشخصه - كما زعم الباحث - لدرجة أنه لم يذكر اسم (علم المعانى) على مسألة بلاغية من المسائل التى تنطوى تحته على كثرة ما عرض منها، كذلك أطلق الصنعة البديعية على بعض مسائل علم البيان.

والذى نقله الباحث عن السيد الجرجانى ونسبه إلى الزمخشرى فى النص السابق من «أنه لم يكن يعد البديع علما مستقلا، بل كان يراه ذيلا لعلمى «المعانى والبيان» ثم علق عليه بقوله بأن السكاكى تأثر بالزمخشرى فى جعل البديع ذيلا للعلمين.

هذا النقل ونسبته للزمخشرى، وتعليق الباحث عليه جانب الصواب، ولنا عليه تعليق.

وقبل التعليق أنبه أنه قد سار على نهج هذا الباحث باحث آخر، فقال[2]:

«وأما البديع فهو فى رأى الزمخشرى تابع للمعانى والبيان، وليس علما قائما بذاته».

وقال باحث ثالث[3]:

«ونقل السَّيد الجرجانى عن الزمخشرى أنه لم يكن يعد البديع علما مستقلا، بل كان يراه ذيلا لعلمى المعانى والبيان».

---

(١) المعانى فى ضوء أساليب القرآن ١٠٩ - ١١١ للمؤلف.

(٢) الزمخشرى ٢٠٣، ٢٩٨.

(٣) النظم القرآنى فى كشاف الزمخشرى ٢٢.

وهذه النقول كلها اعتمدت على نقل الباحث الأول الذى نقله عن السيد الجرجانى، ولأمانة العلم، وإحقاقا للحق، ووضع الأمر فى نصابه، أنقل النص الكامل الذى كتبه الشريف الجرجانى في هذا الموضوع، متضمنا النص الذى نقله الباحث الأول، لنناقشه فيما قال، ونتحسس وجه الصواب فيما رأى.

قال السيد الشريف الجرجانى (ت٨١٦هـ) فى بدء كلامه لشرح كتاب «المفتاح» للسكاكى[(١)]:

«قال المصنف: القسم الثالث من الكتاب فى علمى (المعانى والبيان)، رتب كتابه على ثلاثة أقسام، وأورد فيها بتكملة، فنين، وتوجيه، اعلم أن علم العربية المسمى بعلم الأدب: علم يحترز عن الخلل في كلام العرب لفظا أو كتابة، وينقسم على ما صرحوا به إلى اثنى عشر قسما، منها أصول، ومنها فروع.

أما الأصول فالبحث فيها إما عن المفردات فعلم اللغة، أو من حيث صورها ومبنياتها فعلم الصرف، أو حيث انتساب بعضها من بعض بالأصالة والفرعية فعلم الاشتقاق، وإما عن المركبات على الإطلاق، فأما باعتبار بنياتها التركيبية، وتأديتها لمعانيها الأصلية فعلم النحو، أو باعتبار إفادتها لمعان مغايرة لأصل المعنى فعلم المعانى، أو باعتبار بنية تلك الإفادة فى مراتب الوضوح فعلم البيان، وأما عن المركبات الموزونة، فأما من حيث وزنها فعلم العروض، أو من حيث أواخر أبياتها فعلم القوافى.

وأما الفروع، فالبحث فيها إما أن يتعلق بنقوش الكتابة فعلم الخط، أو يختص بالمنظوم فالعلم المسمى بقرض الشعر، أو بالمنثور فعلم إنشاء النثر من

(١) شرح المفتاح للسيد الجرجانى مخطوط بدار الكتب رقم ٢٥ بلاغة، الورقة الثانية.

الخطب والرسائل، ومالا يختص بشيء منها فعلم المحاضرات، ومنه التواريخ، **وأما البديع فقد جعلوه ذيلا لعلمي المعاني لا قسما برأسه.**

فاختار المصنف الأصول، وترك منها اللغة، لأن مباحثها جزئية منتشرة مع كونها مستقصاة في الكتب المبسوطة، إلا أنه جعل القسم الأول من كتابه في الصرف، وخلط به الاشتقاق بأنواعه الثلاثة، والقسم الثاني في علم النحو، وحكم بأن تـ..ه بعلمي المعاني والبيان، وذلك لأنهما يجريان منه مجرى اللب من القشرة، و..دهما في القسم الثالث، وزعم أن علم الاستدلال جزء من البلاغة، وادعى أن التدريب في علمي المعاني والبيان يتوقف على ممارسة النظم المحوج إلي علمي العروض والقوافي، فجعلهما من تتمة الغرض... إلخ.

ثم استطرد السيد الجرجاني في تلخيص مقدمة كتاب «المفتاح»، وبيان المنهج الذى سار عليه السكاكى في تأليف الكتاب.

ولنا وقفة عند ذلك النص، لنناقش دعويين ادعاهما الدكتور شوقى ضيف، وهما:

الأولى: أن الزمخشرى جعل البديع ذيلا لعلمى البلاغة.

الثانية: أن السكاكى متأثر به فى ذلك.

أما الدعوى الأولى فقد أخذها الدكتور ضيف من قول الشريف الجرجانى: «وأما البديع فقد جعلوه ذيلا لعلمى المعانى والبيان لا قسما برأسه».

فكيف يصح أن ينسب ذلك للزمخشرى وليس له فى النص - على طوله - ذكر إطلاقا؟! وكيف يجعل الباحث الضمير فى «جعلوه» عائدا علي الزمخشرى، وهو لم يتقدم فى الذكر ولا في العهد؟!، ثم من أين للباحث هذا الحكم الذى حمله على الزمخشرى حملا وهو منه براء؟!.

وبخصوص الدعوى الثانية: وهي أن السكاكى تأثر به فى جعل البديع ذنبا

وذيلا، كيف يصح هذا الحكم مع أن السكاكى لـم يثبت عنه أنه جعل البديع ذيلا لعلمـى البلاغة، وإنـما الثابت عـنه كما تنـطق به آثاره، أنه أول من أطـلق «علم المعانـى» علي المباحث التى بحـثها فيه، وأول من أطـلق على مباحث التشـبيه والمـجاز والكنـاية اسم «علم البـيان»، وتركـهمـا على هذا الوجـه من التحـديد والضبط.

وبعد أن خَلَص من بيان هذين العلمين فى كتابه، قال فى شأن البديع: «وإذ تقرر أن البلاغة بمرجعيها، وأن الفصاحة بنوعيها، مما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه أعلى درجات التحسين، فها هنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فـلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها، وهى قـسمان: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ»(١).

فالسكاكى وقد فصل بين العلمين وأطلق عليهما هذين الاسمين، لم يعرض لألوان البديع عـلى أنها علم مستـقل عن العلمين، بل إنـها تشارك مسائلـهما فى تزيين الكلام بأبهى الحلل، والوصول به إلي أعلى درجات التحسين(٢).

فكيف بعد هذا الـتوضيح والذى تنطق به آثار السكاكـى أن يقال: إنه جعل البديع ذيلا وذنبا لعلمى المعانى والبيان؟!.

وهناك بـاحث رابع(٣) عـجب مـن هذا النـقل، وكـيف يـصح ذلـك عن الزمخشرى، وهو يرى أن البديع ماء البلاغة ورونقها؟!.

ثم أخذ يدفع هذا النقل، ويدافع عن الزمخشرى، ويحاول تخليصه من هذه التهمـة، التى ألصقت به، ويدلى بالـحجة تلو الأخرى، ليرد هـذا القول، ويدفع هذا التحامل، ولو درى أن هذا الـنقل ليس عن الزمخشرى لوفر على نـفسه جهد البحث التى ظهرت فى صـفحاته الخمس إقناعا للقارئ، ولتبرئـة الزمخشرى مما

(١) مفتاح العلوم ٢٠٠.

(٢) الصبغ البديعى ٢٥٢.

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى ٤٨٤.

نسب إليه من جعل البديع ذيلا وذنبا للعلمين، وأنه برىء من ذلك براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

فالسكاكى لم يجعل البديع ذيلا وذنبا لعلمى المعانى والبيان، ولا الزمخشرى جعله كذلك، وإنما أول من جعل «البديع» ذيلا وذنبا للعلمين هو الخطيب القزوينى، فكان بهذا العمل أول الجانين على ألوان البديع بوضعها هذا الوضع الشائن البغيض.

وعلى هذا يتبين لنا بوضوح أن الضمير فى «جعلوه» فى النص الذى جعله الدكتور ضيف عائدا على الزمخشرى، وبنى علي هذا حكمه السابق، هذا الضمير عائد على الخطيب القزوينى (ت٧٣٩هـ)، ومن تبعه فى ذلك كسعد الدين التفتازنى (ت٧٩٢هـ)، ونحن نعرف أن الشريف الجرجانى (ت٨١٦هـ)، كان فى الفترة الزمنية التى تلت حياة الخطيب، كما كان معاصرا للتفتازانى.

وبهذا التوضيح يتسق النص الذى نسب إلى الزمخشرى ويظهر ما فيه من مجانبته للصواب.

وقد كان الشريف الجرجانى فى استطاعته إزالة هذا اللبس، وكشف تلك الظلامة التى انتابت النص بإظهار الضمير فى «جعلوه»، ولو فعل لقطع قول كل خطيب.

ونحن لا نعفى الشريف الجرجانى من المؤاخذة لأنه ترك المعنى المراد مُعَمًّى ومستورا بستار كثيف من التعمية والإلغاز، ونحن بتتبع مراحل علم البديع ومن حكموا عليه بالذيلية والتبعية عرفنا أنه الخطيب القزوينى، مع أن كلام الشريف الجرجانى كله كان مقصورا على تلخيص مقدمة السكاكى فى كتابه «المفتاح»، وبيان منهجه فى التأليف، ولماذا بدأ بهذا العلم، وترك ذاك، وقدم هذا، وأخر ذلك، وليس هناك إشارة من قريب أو بعيد إلى الخطيب القزوينى الذى تحققنا أنه مرجع الضمير، ولكن ذلك كان طبيعة العصر والتأليف فيه، فقد

كان قائما علـى الملخصات، ثم الشروح والحواشى والتـقريرات والتى لا يخرج منهـا الباحث بالفـائدة إلا بعد صعـوبة وعسر، وذلـك لركاكة الأسلوب، وكـثرة الضمائر التى تحير العقل، وتكد الذهن فى المرجع الذى تعود عليه.

أما إذا كان الضمير عائدا على السكاكى - وهو صاحب الحديث الذى يدور حوله النص الســابق - يكون الشريف الجرجـانى قد أخطأ حينما جـعل السكاكى ممن وضعوا البديع موضع الذيل والذنب، وجـعلوه التابع الذليل، وهو ما ناقشناه ونفيناه عن السكاكى.

* * *

الباب الأول

المحسنات البديعية

الفصل الأول:

المحسنات المعنوية.

الفصل الثانى:

المحسنات اللفظية

***

تتنوع المحسنات البديعية إلى نوعين:

١- **المحسنات المعنوية**: وهى التى يكون التحسين فيها راجعا إلى المعنى أولا وبالذات، ويتبعه تحسين اللفظ ثانيا وبالعرض.

ويُعرف هذا النوع من الآخر بأنه لو غير اللفظ بما يرادفه لبقى المحسن كما كان قبل التغيير، ففى قول الله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾**﴾ [النجم]، طباق بين «أضحك وأبكى»، وبين «أمات وأحيى»، والطباق محسن معنوى، وعلامة كونه معنويا: أننا لو غيرنا اللفظ بمرادفه - فى غير القرآن - فوضْعنا فى مكان: أضحك، «سَرّ» وفى مكان: أبكى «أحزن» مثلا - لم يتغير المحسن الذى خلعه الطباق على الكلام.

٢- **المحسنات اللفظية**: وهى التى يكون التحسين فيها راجعا إلى اللفظ أولا وبالذات، ويتبعه تحسين المعنى ثانيا وبالعرض.

ويميز هذا النوع عن الأول بأنه لو غير أحد اللفظين بما يرادفه لزال ذلك المحسن، ففى قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ...**﴾ [الروم: ٥٥]، جناس بين لفظى «ساعة وساعة» وهما كلمتان اختلفتا في المعنى، واتفقتا فى نوع الحروف، وشكلها، وعددها، وترتيبها، ولذلك كان الجناس بينهما تاما.

والجناس محسن لفظى، وعلامة كونه لفظيا أننا لو غيرنا اللفظ الأول - مثلا - بمرادفه ووضعنا مكانه «يوم القيامة» لتغير المحسن الذى خلعه الجناس على الكلام.

وهذا التقسيم لتلك الألوان البديعية من لفظية - يرجع جمالها إلى اللفظ والصورة والشكل - ومعنوية - يردون حسنها إلى المضمون والمعنى -؛ تقسيم لم يحالفه التوفيق، لأن ذلك فصل للجسم عن الروح، والروح عن الجسم، وذلك لأن جمال الألفاظ فى تعلقها بالمعانى، وحسن المعانى فى وجودها فى تركيب، وتلك النظرة التكاملية الفنية كثيرا ما أكدها عبد القاهر الجرجانى، فالحسن الحقيقى للكلام لابد أن يكون من اللفظ والمعنى، ويشارك فيه كل من اللفظ والمضمون، وليس فى واحد منهما فقط.

* * *

الفصل الأول

المحسنات المعنوية

الطباق

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾.

[آل عمران]

* * *

الآية الكريمة تصور قدرة الله فى أوسع معانيها، وسلطانه فى أكمل مظاهره، فجمعت بين الضدين، وحكمت بأنه يقدر على الأمرين جميعا: الإيتاء والنزع، والإعزاز والإذلال، وَذِكْر المقابل لا محيص عنه لكمال القدرة، وسعة السلطان، إذ قد يقدر على الإيتاء لكنه يعجز عن النزع، وقد يستطيع أن يعز لكنه لا يقدر على الإذلال، ومع ذلك يمكن أن يوصف بالقدرة، لكن قدرته غير تامة وسلطانه غير شامل، فإذا كان الوصف لله تعالى أدركنا ضرورة اجتماع الضدين، لتكتمل الصورة، ويسمو المعنى، ويعظم السلطان.

فاجتماع الضدين من الحلى البديعية الذى سماه البلاغيون «الطباق»، لأن المتكلم طابق بين الضدين.

فالطباق فى اللغة: مأخوذ من طابق البعير فى مشيه إذا وضع خف رجله موضع خف يده.

وفى الاصطلاح: هو الجمع بين الشىء وضده[1].

---

(١) أى جمع معنيين متقابلين، وسواء أكان التقابل بالتضاد أم غيره، كتقابل البياض والسواد، والعمى والبصر، والتقابل بين الاثنين والجمع.

وأول ما عُرف (الطباق) كان على يد الخليل بن أحمد (ت١٨٧هـ) حينما ذكره بقوله[1]: «يقال: طابقت بين الشيئين إذا جمعت بينهما على حذو واحد والصقتهما، وتعريف الخليل لا يزيد على المعنى اللغوى.

كما ذكره الأصمعى (ت ٣١٣هـ) فى الشعر، فيقول[2]: «أصلها وضع الرِّجل فى موضع اليد فى مشى ذوات الأربع»، وأنشد لنابغة بنى جَعْدَة:

وخيلٍ يُطابِقْنَ بالدَّارِعين طبا ... ق الكلاب يطأْنَ الهراسَا[3]

ثم قال: أحسن بيت قيل لزهير فى ذلك:

ليْثٌ بعثَّر يصطادُ الرجال إذا ... ما اللَّيث كَذَّب عن أقرانه صدقا

وتعريف الأصمعى لا يزيد على المعنى اللغوى، لكن تمثيله بقول زهير يفهم منه أن المطابقة عنده: هى الجمع بين الشىء وضده، إذ جمع فيه بين الصدق والكذب، وهما ضدان.

وتكلم عنه ابن المعتز، وعده من فنون البديع، وسماه «المطابقة أو الطباق».

وبدأ ببيان معناها اللغوى، وعرفها: بأنها الجمع بين الشىء وضده، وساق لها الشواهد من القرآن والحديث، وكلام الصحابة، وأشعار الجاهليين، والإسلاميين، والمحدثين.

وظلت تلك الصورة تعرف بهذا الاسم إلى الآن.

صور المطابقة:

ينقسم الطباق باعتبار طرفيه إلى قسمين:

١- حقيقى: وهو ما كان طرفاه بألفاظ الحقيقة اسمين، أو فعلين، أو حرفين، أو مختلفين.

(١) العمدة (جـ٢/ ٧).

(٢) العمدة (جـ٢/ ٧).

(٣) شبه النابغة مشى الخيل بالفرسان - وهى تضع رجلها مكان يدها - بوطء الكلاب حطام الشوك فهى لا تضع أرجلها إلا حيث رفعت فيه أيديها طلبا للسلامة.

فما طرفاه اسمان، كقوله تعالى في قصة أصحاب الكهف: ﴿وتحسبهم أيقاظا وهم رقود﴾ [الكهف: ١٨]. وقول: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ﴿١٩﴾ ولا الظلمات ولا النور ﴿٢٠﴾ ولا الظل ولا الحرور ﴿٢١﴾ وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢].

وما طرفاه فعلان، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وأنه هو أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ [النجم]. وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مالكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ من تشاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيدك الْخَيْرُ ...﴾.

[آل عمران: ٢٦]

وما طرفاه حرفان، كقوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لها ما كسبت وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾(١) [البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عليهن بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقول مجنون ليلى:

على أَنَّنى رَاضٍ بأَنْ أَحْمِلَ الهَوَى وأَخْلُصُ منه لا عَلَيَّ ولا لِيَا(٢)

وما طرفاه مختلفان، كقوله تعالى: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

[آل عمران: ٤٩]

وقول الشاعر:

قد كان يُدْعى لابسُ الصَّبْر حازمًا فأصبح يُدْعى حازِمًا حين يجْزع

٢- مجازى: ما كان طرفاه غير حقيقين - أى مستعملان فى المجاز - كقوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، أى ضالا فهديناه، فالموت والإحياء لفظان مجازيان ومعناهما متضادان، والضلالة والهدى، وهما حقيقتا اللفظين متضادان أيضا:

---

(١) فى «اللام» معنى المنفعة، وفى «على» معنى المضرة.

(٢) الشاهد فى «على» - الثانية - مع اللام فى قوله (ليا) وعلى - الأولى - بمعنى مع، والمعنى: أنه يحمل ما يوجب مدحه. ولكنه يرضى بأن يخلص منه وليس عليه ذم ولا له مدح.

ومثله قول الشاعر:

لقد أحْيَا المكارِمَ بعْد موْتٍ   وشاد بناءَهَا بعْد انهِدَامِ

فالإحياء والموت، والشَّيد والانهدام معانيها متقابلة فى ألفاظها الحقيقية والمجازية، إذ المراد أعطى في وقْتٍ قَلّ فيه العطاء.

الطباق المعنوى:

الصور السابقة للمطابقة كانت بين الألفاظ حقيقة كانت أم مجازية، وهنا صورة جديدة للطباق المعنوى، وهو ما كانت المقابلة بين الشىء وضده فى المعنى لا فى اللفظ، كقوله تعالى: ﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً**﴾ [البقرة: ٢٢]، فلما كان البناء رفعا للمبنى كان مضادا للفراش.

وكذلك قوله تعالى فى شأن أصحاب القرية: ﴿**قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾**﴾ [يس]، فإن المعنى: إن الله يعلم إنا لصادقون[1].

طباق الإيجاب وطباق السلب:

صور المطابقة إذا كان المتقابلان فيها موجبين - كالأمثلة السابقة - أو سلبيين، كقوله تعالى: ﴿**وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى ﴿١٣﴾**﴾ [الأعلى]، تسمى طباق الإيجاب.

أما طباق السلب: وهو ما كان فيه أحد طرفى المطابقة مثبتا والآخر منفيا، كقوله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الزمر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿**فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ**﴾ [المائدة: ٤٤].

وقوله: ﴿**وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾**﴾ [النحل]

ومن الطباق الرائع قوله تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ**

---

(١) تحرير التحبير ١١٥.

آمنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴿٨﴾ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلاّ أنفسهم وما يشعرون ﴿٩﴾﴾ [البقرة]، فطابق بين «آمنا»، و«ما هم بمؤمنين»، وبين «يخادعون»، و«ما يخدعون»، والمقام يقتضى تكذيب المنافقين فى دعواهم للإيمان، وأنها لم تصدر عن يقين وعقيدة، وإنما صدرت عن كذب وخداع، فكان فى المطابقة أبلغ رد على ما ادعوه، وأقوى نفى لما انتحلوه.

طباق التدبيج:

من الطباق ما سماه بعضهم (التدبيج) من دبج الأرض أى: زينها.

واصطلاحا: أن يذكر فى معنى كالمدح وغيره لونان أو ألوان بقصد الكناية أو التورية، كقول أبى تمام:

تردَّى ثياب الموت حُمْرًا فما أتى ... لها الليلُ إلا وهْىَ سُنْدُسٌ خُضْرُ(١)

فقد كنى عن القتل بلبس الثياب الحمر، وعن دخول الجنة بخضرة السندس، وجمع بين الحمرة والخضرة على سبيل الطباق، وقول ابن حيوس:

إنْ تُرِدْ عِلْم حالهم عن يَقين ... فالقَهُم يَوم نَائلٍ أو نِزَالِ
تَلْقَ بيضَ الوجوهِ سُودَ مثارِ النَّقْـ ... ـعِ خُضْرَ الأكْنافِ حمْرَ النِّصَالِ(٢)

فقوله: «بيض الوجوه» يرجع إلى (يوم نائلهم)، وهو كناية عن كرمهم، و(سود مثار النقع، خضر الأكناف، وحمر النصال)، كناية عن شجاعتهم، والشاهد: التقابل بين بيض وسود، وخضر وحمر، وهذا يسمى تدبيج الكناية.

وتدبيج التورية كقول الحريرى: فَمذِ ازورّ المحبوب الأصفر، واغبر العيشُ

---

(١) تردى ثياب الموت: ارتدى ثياب الحرب.

(٢) النائل: العطاء، نزال: الحرب، مثار النقع: الغبار المنتشر، الأكناف: جمع كنف وهو الجانب، وخضرتها: كناية عن سواد دروعها. لأن العرب تسمى الضارب إلى السواد أخضر، النصال: جمع نصل: وهو حديدة الرمح والسيف والسكين.

الأخضر، اسودّ يومي الأبيض، وأبيض فَوْدى الأسود، حتى رثى لي العدوّ الأزرق، فيا حبذا الموتُ الأحمر[1].

فالمعنى القريب للمحبوب الأصفر: إنسان ذو صفرة، والمعنى البعيد: الذهب، وهو المراد فيكون تورية، وبقية العبارة كناية، فيكون فى كلام الحريرى تدبيج التورية والكناية.

ومن التدبيج فى القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر].

فإن المراد بذلك الكناية عن المشتبه والواضح من الطرق، لأن الجادة البيضاء: هى الطريق الملحوب الذى كثر السلوك فيه جدا، وهى أوضح الطرق وأبينها، ولهذا قيل: ركب بهم المحجة البيضاء، ودونها الحمراء، ودون الحمراء السوداء التى كأنها فى الخفاء والالتباس ضد البيضاء وفى الظهور والوضوح.

ولما كانت هذه الألوان الثلاثة فى الظهور للعين طرفين وواسطة، فالطرف الأعلى فى الظهور (البياض) والطرف الأسفل فى الخفاء (السواد)، والأحمر بينهما على حكم وضع الألوان فى التركيب، ولما كانت ألوان الجبال لا تخرج عن هذه الألوان الثلاثة، والهداية بكل عَلَم نصب للهداية تنقسم هذه القسمة، أتت الآية الكريمة على هذا التقسيم، فحصل التدبيج فيها، وصحة التقسيم، وهى مسوقة للاعتداد بالنعم على ماهدت إليه من السعى فى طلب المصالح والمنافع، والفرار من المضار والمعاطب[2].

---

(١) خضرة العيش: كناية عن طيبه، والاغبرار كناية عن ضيقه، وازورّ: بعد، اسودّ: كناية عن الحزن، وابيض الفود: كناية عن الضعف والفودان: شعر جانبى الرأس مما يلى الأذنين.

(٢) تحرير التحبير ٥٣٢.

ما يلحق بالطباق:

يلحق بالطباق نوعان:

١- **الطباق الخفى**: قد تكون الضدية فى الصورة متوهمة، وفى هذه الصورة تكون المطابقة خفية لتعلق أحد الركنين بما يقابل الآخر تعلق السببية أو اللزوم، كقوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣] فابتغاء الفضل وإن لم يكن ضدا للسكون، ولكنه يستلزم الحركة المضادة للسكون.

ومثله قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، فالرحمة وإن لم تكن مقابلة للشدة، ولكنها مسببة عن اللين الذى ضد الشدة.

وقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ...﴾ [نوح: ٢٥].

فإدخال النار يستلزم الإحراق المضاد للإغراق.

٢- **إيهام التضاد**: وهو ما جمع فيه بين معنيين غير متقابلين عبر عنهما بلفظين يتقابل معناهما الحقيقيان، كقول الشاعر:

وقد أَطْفَأُوا شمس النَّهارِ وأَوْقَدوا ... نُجُوم العَوالى فى سَمَاءِ عجاج

فالتقابل بين «الإطفاء والإيقاد» الحقيقيين، وأما المجازيان فلا، لأن «إطفاء الشمس» عبارة عن إثارة العجاج حتى غطى الشمس، و«إيقاد نجوم العوالى» عبارة عن رفع وتشريع أسنة رماحهم، ولا مضادة بين هذين المعنيين.

كذلك قول دعبل الخزاعى:

لا تعجبى يا سلْمُ من رَجُلٍ ... ضَحِكَ المشِيبُ برأسه فَبكَى

فضحك المشيب: المراد منه ظهور الشيب ظهورا تاما، ولا تقابل بين البكاء، وظهور الشيب «المجازى»، لكن الضحك بمعناه الحقيقى مضاد للبكاء.

الطباق المرشح: قد يوجد بجانب الطباق والتضاد بين الطرفين صورة أخرى من صور البديع، فيكتسى الكلام طلاوة وبهاء، والمعنى وضوحا وبيانا، يتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الروم: ٢٤]، فقد طابق بين الخوف والطمع، مع التقسيم البديع، إذ ليس فى رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق والطمع فى الأمطار، ولا ثالث لهذين القسمين.

وكذلك قوله: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]، فإن فيه مع المطابقة إدماج المبالغة في الحمد إذ أفرد نفسه - سبحانه - بالحمد حيث لا يُحمد سواه، إذ قال: وله الحمد فى الأولى والآخرة.

ومثله قوله: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧﴾ [آل عمران]، حيث قرنت المطابقة بصورة (العكس) الذى لا يدرك لوجازته وبلاغته، كما قرنت مبالغة (التكميل) التى لا تليق بغير القدرة الإلهية، فإن فى العطف بقوله: «وترزق من تشاء بغير حساب»، دلالة على أن من قدر على تلك الأفعال التى لا يقدر عليها غيره، قادر على أن يرزق من يشاء من عباده بغير حساب، وهذا من مبالغة التكميل المشحونة بالقدرة الربانية(١).

فقد اجتمع فى الآية (المطابقة) الحقيقية، (والعكس) الذى لا يدرك لوجازته، ومبالغة (التكميل).

ومثلها قول امرئ القيس:

مِكرٌ مِفرٌ مقبلٍ مدبرٍ معًا ... كجلمودِ صخرٍ حطَّهُ السَّيْل من عَلِ

فالمطابقة فى (الإقبال والإدبار)، ولكنه لما قال: «معا» زادها (تكميلا) فى غاية الكمال، فالمراد بها قرب الحركة فى حالتى الإقبال والإدبار، وحالتى الكر

---

(١) أنوار البديع ١٤٧، الصور البديعية (جـ٢/ ٩٧-٩٩).

والفر، فلو تركت المطابقة مجردة من هذا التكميل ما حصل فى الشعر هذه البهجة.

ثم إنه استطرد بعد تمام المطابقة، وكمال التكميل إلى التشبيه على سبيل الاستطراد البديعى. فالبيت اشتمل على (المطابقة، والتكميل، والاستطراد).

وقول الأرجانى:

تَعلَّق بين الهَجْر والوصْل مُهْجتى   فلا أربى فى الحب أقْضِى ولا نَحْبِى

فقد قرن المطابقة بالجناس، ووشاه باللف والنشر غير المرتب.

* * *

المقابلة

يقول تعالى فى آية الصيام: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ، وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ .

[البقرة: ١٨٥]

* * *

ينبه الله سبحانه فى الآية الكريمة أنه مع وجوب الصوم فقد أباح الفطر لصاحب العذر، وجعل فى ذلك تيسيرا على الناس، وتجنبا للتعسير على العباد.

ونجد فى الآية الكريمة كلمتين فى فقرة واحدة «يريد الله بكم اليسر»، وقد جاء بعدها فى الفقرة الثانية بما يقابلهما على الترتيب «ولا يريد بكم العسر»، وهذا ما سماه البلاغيون بالمقابلة.

فالمقابلة: أن يؤتى بمعنيين متوافقين، أو معان متوافقة، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب.

ومقابلة اثنين باثنين، كقوله تعالى فى شأن المخلفين: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً ، وَلْيَبْكُوا ، كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة]، فقابل الضحك والقلة بالبكاء والكثرة، مع الترتيب.

وقوله ﷺ للأنصار: «إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع»، فقابل الكثرة والفزع بالقلة والطمع، مع الترتيب.

ومقابلة ثلاثة بثلاثة كقوله تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ، وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، وكقول أبى دلامة، وقد سأله المنصور عن أحسن بيت قيل فى المقابلة، قال: بيت يلعب به الصبيان، وأنشد:

ما أَحْسَنَ الدِّين والدُّنيـا إذا اجْتَمَعا   وأقبحَ الكفرَ والإفلاسَ بالرجلِ

فقابل الشاعر: أحسن بأقبح، والدين بالكفر، والدنيا بالإفلاس.

وقد اجتمعت المقابلة اثنين باثنين، وثلاثة بثلاثة فى قوله تعالى فى صفة الرسول ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فقابل أولا الأمر بالمعروف بالنهى عن المنكر، ثم قابل ثانيا ثلاثة بثلاثة.

ومقابلة أربعة بأربعة قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل]، فقابل الإعطاء والاتقاء والتصديق والتيسير، بالبخل والاستغناء[1] والتكذيب والتعسير.

ومقابلة خمسة بخمسة كقول المتنبى:

أَزُورهُم وسوادُ الليلِ يشْفَعُ لى   وأنْثَنى وبياضُ الصُّبحِ يُغْرِى بِى[2]

ومن معجز هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣].

فانظر إلى مجئ الليل والنهار فى صدر الكلام، ثم قابلهما فى عجز الكلام بضدين، وهما: السكون والحركة على الترتيب، ثم عبر عن الحركة بلفظ الإرداف، فاستلزم الكلام ضربا من المحاسن زائدا عن المقابلة، وعدل عن لفظ (الحركة) إلى لفظ (ابتغاء الفضل) لكون الحركة تكون لمصلحة ولمفسدة، وابتغاء الفضل حركة المصلحة دون المفسدة، وهى تشير إلى حسن الاختيار الدال على

---

(١) ضدية الاستغناء مبنية على اعتبار ما يلزم الاستغناء من ترك الاتقاء والاستغناء بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة فلم يتق الله ولم يحذر المعاصى.

(٢) يشفع لى: يعينه على الاجتماع بهم لأنه يستره عن الرقباء، يغرى بى: بمعنى يحضهم عليه.

رجاحة العقل وسلامة الحِسّ، والآية سيقت للاعتداد بالنعم، فوجب العدول عن لفظ الحركة إلى لفظ هو ردفه وتابعه، ليتم حسن البيان.

فتضمنت هذه الكلمات التى هى بعض آية عدة من المنافع والمصالح التى لو عددت بألفاظها الموضوعة لها لاحتاجت فى العبارة عنها إلى ألفاظ كثيرة، فحصل فى الكلام بهذا السبب عدة ضروب من المحاسن. ألا تراه - سبحانه - جعل العلة فى وجود الليل والنهار حصول منافع الإنسان، حيث قال: «لتسكنوا، ولتبتغوا» بلام التعليل.

فجمعت هذه الكلمات: المقابلة، والتعليل، والإشارة، والإرداف، وائتلاف اللفظ مع المعنى، وحسن البيان، وحسن النسق، فلذلك جاء الكلام آخذا بعضه بأعناق بعض، ثم أخبر بالخبر الصادق أن جميع ما عدده من النعم بلفظه الخاص، وما تضمنته العبارة من النعم التى تلزم من لفظ الإرداف بعض رحمته، حيث قال بحرف التبعيض: «ومن رحمته» وكل هذا فى بعض آية عدتها عشر كلمات[1].

والفرق بين الطباق والمقابلة:

١- المطابقة لا تكون إلا بالجمع بين ضدين، والمقابلة تكون غالبا بالجمع بين أربعة أضداد: ضدان فى صدر الكلام وضدان فى عجزه، وتبلغ إلى الجمع بين عشرة أضداد: خمسة فى الصدر وخمسة فى العجز.

٢- المطابقة لا تكون إلا بالأضداد، والمقابلة تكون بالأضداد وبغير الأضداد[2].

وبلاغة المقابلة تأتى من أنها سبب من أسباب وفاء المعنى وتمام الغرض، تأمل قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ، وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا

(١) تحرير التحبير ١٨٠.

(٢) تحرير التحبير ١٧٩.

بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١]، فلما كان الغرض هو إبراز عداوتهم، وكشف أسباب تخلفهم كانت المقابلة أتم فى أداء هذا المعنى، وأوفى فى الغرض، فقد يكون الفرح لمنفعة كحب الحياة وتجنب المتاعب، ولكن كراهة الخروج - التى أفادتها المقابلة - تنم عن الحقد الدفين والكراهية البغيضة.

ويقول بعض علماء البديع: كلما كثرت المتقابلات كان الكلام أبلغ، وما أظن الذوق السليم يرى أن التفاضل بالكثرة، ولذلك تجدها فى القرآن الكريم ليس فيها خمسة بخمسة، ولا ستة بستة، ولا نجد شيئا منها فى الحديث الشريف، ولا فيما أثر عن الفحول من الكتاب والشعراء.

* * *

ائتلاف اللفظ مع اللفظ

«مراعاة النظير»

قال تعالى يحكى مقالة إخوة يوسف لأبيهم: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [يوسف].

* * *

فالله سبحانه أتى بأغرب ألفاظ القسم (تالله) - بالنسبة لأخواتها، فإن «والله وبالله» أكثر استعمالا، وأعرف عند الكافة من «تالله» - مناسبة لأغرب صيغ الأفعال - التى ترفع الأسماء وتنصب الأخبار - وهى «تفتأ»، فإن (زال) أقرب منها إلى الأفهام، وأكثر استعمالا، ولذلك أتى بعدها بأغرب ألفاظ الهلاك، وهو «الحرض»، فاقتضى الائتلاف أن تتجاور كل لفظة مع لفظة من جنسها فى الغرابة، توخيا لحسن الجوار، ورغبة فى ائتلاف الألفاظ لتتعادل فى الوضع، وتتناسب فى النظم(١).

ويسمى هذا اللون من البديع: ائتلاف اللفظ مع اللفظ، أو مراعاة النظير، أو الائتلاف، أو التناسب، أو التوفيق.

وعرفوه: بأنه الذى يجمع فى الكلام بين أمرين، أو أمور متناسبة، لا بالتضاد - لتخرج المطابقة.

ومن مراعاة النظير، قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾ [الرحمن]، فجمع فى الآية بين «الشمس والقمر» وهما متناسبان لتقارنهما فى الخيال، وكونهما كوكبين سماويين.

---

(١) الإتقان (جـ٢/ ٨٨).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِين يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّه فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]، فالذهب والفضة متناسبان لتقارنهما فى الخيال، وكونهما النقدين الأساسيين فى التعامل، ومن طبيعة النفوس اقتناؤهما.

ومنه قول البحترى يصف إبلا هزيلة:

كالقِسىِّ المعطَّفاتِ،بل الأسْـ ـهُمِ مَبْرِيَّةً،بل الأوتارِ

فاختار الشاعر تشبيهها بالقسى، دون العراجين والأطناب مثلا، من أجل أنه أراد تشبيهها بالقسى والأوتار والأسهم، لما بينهما من المناسبة والائتلاف، فقد شبه الإبل أولا فى ضعفهما بالقسى، ثم أضرب إلى ما هو أدق وهو السهام، ثم أضرب إلى ما هو أدق وهو الأوتار.

وكذلك قول ابن رشيق:

أَصحُّ وأَقْوى ما سَمِعناهُ فى النَّدى من الخَبَرِ المأثورِ منذُ قديمِ
أَحاديثُ ترْويها السيُولُ عن الحَيَا عن البحْرِ عن كَفِّ الأمير تميمِ(١)

فقد ناسب فيه بين الصحة، والقوة، والسماع، والخبر المأثور، والأحاديث، والرواية، ثم بين السيل، والحيا، والبحر، وكف تميم، مع ما فى البيت الثانى من صحة الترتيب، ثم فى العنعنة، إذ جعل الرواية لصاغر عن كابر، كما يقع فى سند الحديث، فإن السيول أصلها المطر، والمطر أصله البحر، وجعل كف الممدوح أصلا للبحر مبالغة.

وقد يتوهم فى بادئ النظر فى قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ، وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة]، أن قول: «وإن تغفر» يناسبه أن يقال: «فإنك أنت الغفور الرحيم»، لكن ذلك التوهم يزول عند التأمل فى الآية.

---

(١) الحيا: المطر، والأمير تميم: هو ابن المعز بن باديس.

إذ المناسب هو ما ختمت به الآية، وهو قوله: «فإنك أنت العزيز الحكيم»، وذلك لأن المحدِّث «العزيز» الغالب الذى لا يعترض عليه أحد، و«الحكيم» الذى يضع الشىء فى محله، والله تعالى كذلك، فقد وصف نفسه بالحكيم للإشارة إلى أن فعله ذلك لحكمة وإن كانت تخفى على خلقه، فيتوهم الضعفاء أنها خارجة عن الحكمة، فكأنه قيل: إن تعف عن هؤلاء المذنبين مع استحقاقهم العقاب فأنت أهل لذلك، إذ لا اعتراض عليك لعزتك، ومع ذلك ففعلك لايخلو من حكمة وإن خفيت على عباده[1].

ومما جاء على هذا النحو من المناسبة الخفية، قوله تعالى:

﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [آل عمران].

فالمتبادر إلى الذهن فى آية البقرة الختم بالقدرة، وفى آية آل عمران الختم بالعلم، ولكن إذا أنعم النظر علم أنه يجب أن يكون ما عليه التلاوة فى الآيتين[2].

والناظر فى السياق (آية البقرة) يجده:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة].

قال صاحب البحر المحيط[3]: «وناسب مقطع هذه الآية بالوصف بمبالغة

---

(١) البرهان فى علوم القرآن (جـ١/ ٩٠).

(٢) البرهان (جـ/ ٩١) معترك الأقران (جـ١/ ٤٩).

(٣) (جـ١/ ١٢٦).

العلم، لأنه تقدم ذكر خلق الأرض والسماء، والتصرف فى العالم العلوى والسفلى، وغير ذلك من الإماتة والإحياء، وكل ذلك يدل على صدور هذه الأشياء عن العلم الكامل التام المحيط بجميع الأشياء، وفى تعميم قوله تعالى: «وهو بكل شيء عليم» رد على من زعم أن علم الله تعالى يتعلق بالكليات لا بالجزئيات (تعالى الله عن ذلك).

كما أن الناظر فى سياق (آية آل عمران) يجده:

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [آل عمران].

فاتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين إنما يكون لزعمهم قدرة الكافرين على نفع لا يملكه المؤمنون لهم، فحذر الله من يفعل ذلك من المؤمنين، وبين لهم أن إليه مصيرهم للحساب، وأنه قدير على استظهار ما تخفى صدورهم لشمول علمه ما خفى وما أعلن، بل إن علمه تعالى محيط بما فى السموات وما فى الأرض لشمول قدرته كل شىء.

وعلى ذلك ينبغى أن يعلموا أن استظهارهم بقدرة من هو على كل شيء قدير، أولى وأكرم لهم من موالاة الكافرين الذين قد زعموا قدرتهم على نصرهم.

* * *

وشبيه بهذا قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ عليمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]، ويقول بعد ذلك: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾ [الفتح].

فقد أتبع (العليم) بالحكيم أولا، ثم أتبع العزيز بالحكيم ثانيا، مع اتحاد اللفظ فيما سبقهما من قوله: «ولله جنود السموات والأرض».

ولهذا التغيير وجهة دقيقة، يقول الكرمانى(١):

«لأن الأول متصل بإنزال السكينة، وازدياد إيمان المؤمنين، فكان الموضع موضع علم وحكمة، وأما الثانى فمتصل بالعذاب والغضب وسلب الأموال والغنائم، فكان الموضع موضع عز وغلبة وحكمة.

ويقول الخطيب الإسكافى(٢):

والجواب أن يقال: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح] قد فسر على وجهين:

أحدهما: أنها نزلت عليه مرجعه من عام الحديبية مبشرة بما يكون من الفتح فى قابل، ومعناه: **إنا قضينا بفتح مكة لا عن محاربة منك لأهلها ليغفر الله لك**، ويتم نعمته عليك بما يملكك بعده جميع أرض العرب، وقد علم الله ما يكون قبل كونه، وقرن الحكمة بصنعه، وهذا معنى «وكان الله عليما حكيما».

والوجه الآخر: أن تكون قد نزلت لما فتح الله مكة، وكان وعد الله قد سبق بها وبغيرها من البلدان، فلما فتحت مكة ازداد المؤمنون بصيرة إلى بصيرتهم لما صدق الله من وعدهم، فوثقوا أتم ثقة باعتلاء أمرهم، وقوله: «وكان الله عليما حكيما»، أى: بما يكون مما أخبرتكم به وبسائر المعلومات، حكيما فى أفعاله بالأوقات، فيقدم ويؤخر على مقتضى الحكمة لا على مقتضى إرادة الخليقة.

---

(١) أسرار التكرار فى القرآن (١٨٢).

(٢) درة التنزيل (٤٤٢).

وأما قوله بعد: «وكان الله عزيزا حكيما»، فإنما جاء بعد قوله: «ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات»، فذكر قدرته على عقابهم وقهره لهم بعذابه، فلما عذبهم بأن أذلهم وأباح للمؤمنين قتلهم وغنمهم أموالهم، كان هذا المكان مقتضيا أن يتصف الله تعالى بالقهر والعزة والحكمة فيما يظهر من القدرة، فصار كل من خاتمتى الآيتين فى موضعه.

* * *

فالمتأمل لنظم القرآن الكريم يجد هذه الأسماء الكريمة قد انتشرت فى خلال آياته على اختيار دقيق لكل منها، سواء منها ما انفرد بموضعه، أو اجتمع مع غيره. والعز بن عبد السلام يشير إلى المغزى العظيم الذى تذكر له أسماء الله الحسنى فى كتابه، يقول(١):

«إن الله ذكر صفاته لعباده ليعرفوها، ويعاملوه بما يناسبها من الأحوال والأقوال، والأعمال».

فوصف نفسه بالربوبية ليعبدوه، وبالكمال ليمجدوه، وبالجلال ليوقروه، وبالإفضال ليشكروه، وبالجمال ليحبوه، وبالكبرياء ليهابوه، وبالقرب منهم ليراقبوه، وبِسَمة الرحمة ليرجوه، وبشدة النقمة ليخافوه، وبالعظمة ليخضعوا لعظمته، وبالعزة ليتذللوا لعزته، وبالإحسان إليه ليرضوا عنه، وبالاطلاع عليهم ليستحيوا منه، وبالتفرد بإلهيته لئلا يعبدوا سواه، وبالتوحد بالنفع والضر لئلا يعتمدوا إلا عليه، ولا يستندوا إلا إليه، فتجلى لهم بصفاته ليحثهم بمعرفتها على التمسك بكتابه، والتخلق بآدابه، وقل أن توجد صفة من هذه الصفات إلا وهى

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز ٢٦٠.

مناسبة لما قرنت به من أحكام حاثة أو زاجرة عليه، ولكن تلك المناسبة تارة تكون ظاهرة جلية، وتارة تكون باطنة خفية، وضرب لذلك أمثلة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وصف نفسه بالربوبية حثا لهم على عبادته، إذ لا يليق بالعبد الذليل إلا عبادة الرب الجليل.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)﴾ [الأنعام]، وصف نفسه بالربوبية ليعبد، وبالتوحيد بالألوهية ليوحد، وبخلق كل شيء ليشكر، وبتوكله بتدبيرهم ليعتمدوا عليه ويستندوا إليه...».

* * *

ولو ذكر لفظ غير مناسب في وسط الألفاظ المتناسبة عد ذلك عيبا، ولذلك عابوا على أبي نواس قوله:

وقد حلفتُ يمينًا ... مبرورةً لا تكذبِ
بربِّ زمزم، والحَوْ ... ضِ، والصَّفا، والمحَصَّبِ

لأن (الحوض) لا يأتلف ولا يناسب (المحصب وزمزم، والصفا)، وإنما يأتلف ويتناسب مع ما هو منوط بيوم القيامة كالصراط والميزان.

«واستنشد سيف الدولة أبا الطيب قصيدته التي مدحه بها، وقد سار لبناء الحدث، وأولها:

على قدْرِ أهل العزمِ تأتي العزَائمُ ... وتأتي على قَدْرِ الكرام المَكارمُ

فلما بلغ إلى قوله:

وقفتَ وما في الموتِ شَكٌّ لواقفٍ ... كأنك في جَفْنِ الرَّدى وهو نَائمُ

تَمُرُّ بِكَ الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً   ووجهك وضَّاحٌ وثغرُك باسم[1]

قال سيف الدولة: قد انتقدتهما عليك، كما انتقد على امرئ القيس قوله:

كأنى لم أركبْ جوادًا للذَّةٍ   ولم أتبطَّن كاعبًا ذات خلْخَال
ولم أسبأ الزِّقَّ الرَّوِيَّ، ولم أقلْ   لِخَيْلِي كُرِّى كرَّةً بعد إجْفالِ[2]

فبيتاك لم يلتئم شطراهما، كما لم يلتئم شطرا بيتى امرئ القيس، وكان ينبغى له أن يقول:

كأنى لم أركب جوادا، ولم أقل   لخيلى كُرِّى كَرَّة بعد إجْفالِ
ولم أسبأ الزِّقَّ الرَّوِيَّ للَذةٍ   ولم أتبَطَّنْ كاعِبًا ذات خلخال

وكذلك كان ينبغى أن تقول:

وقفتَ وما فى الموتِ شكٌّ لواقف   ووجهك وضاحٌ وثغرك باسم
تمر بك الأبطالُ كلْمَى هزيمةً   كأنك فى جفْنِ الرَّدى وهو نَائمُ

فقد تنبه سيف الدولة إلى أن تناسب المعانى فى التشبيه يستلزم عكس الترتيب، بجعل الشطر الثانى من البيت الأول فى موضع نظيره من البيت الثانى، مبرهنا على ذلك بأنه إذا وقف والموت لا شك فيه فكان وضاح الجبين باسم

---

(١) المعنى: وقفت غير متهيب الموت الذى لا شك فيه لمن تقدم تقدمك، وكأن الموت نائم ومعرض عنك، والأبطال تمر بك وهم جرحى مهزومون، ولكن ذلك لا يثنى عزمك، ولا يضعف نفسك، بل كنت بساما غير متضجر واثقا من الله بالنصر.

(٢) لم أتبطن: لم أجعلها بطانة، أى بطنى فوق بطنها، الكاعب: التى يبرز ثديها، يريد: أن الشباب ذهب وكأن ما ناله من لذاته لم يكن، أسبأ الخمر: اشتراها لا للبيع ولا للتجارة، الزق: وعاء الخمر، الروى: المملوء، الكر: الرجوع على العدو، الإجفال: الانهزام، ديوان المتنبى (جـ٣/ ٣٨٦)، مختار الشعر الجاهلى (جـ١/ ٤٠).

الثغر، دل بذلك على تناهى شجاعته إذ يضحك فى مقام البكاء، ويشرق جبينه على حين يشتد العبوس، وتكفهر الوجوه.

وكذلك إذا كان لم يسلم من ضرر القتال أحد، ثم كان الممدوح مصونا كأنه فى جفن أطبقه النوم كان ذلك أدل على إرادة الله له الحفظ وتقديره له السلامة.

لكن المتنبى قال: إن صح أن الذى استدرك على امرئ القيس أعلم منه بالشعر، فقد أخطأ امرؤ القيس، وأخطأت أنا، ومولانا يعلم أن الثوب لا يعلمه البزاز كما يعلمه الحائك، لأن البزاز يعلم جملته والحائك يعلم جملته وتفصيله، لأنه أخرجه من الغزلية إلى الثوبية.

وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد، والشجاعة فى منازلة الأعداء بالسماحة فى شراء الخمر للأضياف، للتضايف بين كل من الفريقين.

وكذلك لما ذكرت الموت فى صدر البيت الأول أتبعته بذكر الردى فى آخره، ليكون أحسن تلاؤما، ولما كان وجه الجريح المنهزم عبوسا، وعينه باكية، قلت: «وجهك وضاح وثغرك باسم، لأجمع بين الأضداد فى المعنى».

فأعجب سيف الدولة كلامه، ووصله بخمسمائة دينار»[1].

* * *

ولما اعترض سيف الدولة - بما أسلفنا - قال له بعض الحاضرين، لاكرامة لهذا الرأى، إن الله سبحانه وتعالى أصدق منك حيث يقول: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه][2].

---

(١) الصبح المنبى (٨١-٨٥)، يتيمة الدهر (١/ ١٥).

(٢) الخطاب لسيدنا آدم فى وصف الجنة (انظر قصص العرب ج٢/ ٢٣٢).

فأتى بالجوع مع العرى، ولم يأت به مع الظمأ، فسر الملك وأجازه - يعنى أنه لا ضير فى عدم ترادف المتناسبات.

وقد نازع فى ذلك صاحب العمدة[1] بما معناه أن الاحتجاج بالآية الكريمة ليس من ذلك فى شىء، لأن الله سبحانه أجرى الخطاب علي متعارف العادة، وفيه مع ذلك تناسب، لأن العادة أن يقال: فلان جائع عريان، ولم يستعمل فى هذا الموضع عطشان ولا ظمآن، وقوله تعالى: «تظمأ وتضحى» متناسب، لأن الضحى هو الذى لا يستره شىء عن الشمس، والظمأ من شأن من كانت هذه حاله.

ويعلق الشيخ حمزة فتح الله على ذلك، فيقول:

وخلاصة الكلام فى هذا المقام أن المناسبة المعنوية التى هى أحد أنواع البديع المعبر عنها (بائتلاف المعنى مع المعنى) قسمان:

أحدهما: أن يشتمل الكلام على معنى يصح فيه لفظان أحدهما ملائم له بحسب نظر دقيق، والآخر ليس كذلك، فيقرن بالملائم كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾[2] [البقرة: ٥٤] ناسب لفظ البارئ دون غيره من الأسماء الحسنى، لأن البارئ هو الذى خلقهم بريئا من التفاوت، وهى نعمة جسيمة، وكان من حق الشكر عليها أن يخصوه بالعبادة، فلما عكسوا وعبدوا العجل استردت منهم تلك النعمة بالقتل. وكقول أبى الطيب:

فالعُرب منه مع الكُدْرِىِّ طائرةٌ والروم طائرة منه مع الحَجلِ[3]

(١) العمدة (جـ٢/ ٢٣٢).

(٢) تتمة الآية ﴿فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم﴾ [البقرة: ٥٤].

(٣) يمدح سيف الدولة بأن العرب تفخر به وتتيه بغزواته، بينما الروم فزعة منه خائفة من وقائعه فيهم (ديوان المتنبى ٢٥٨).

فالكدرى ضرب من القطا من طير السهل، والعرب بلادها المفاوز، والحجل من طير الجبل، والروم بلادها الجبال.

والقسم الثاني: أن يشتمل الكلام على معنى له ملائمان يصح أن يقرن كل منهما به، لكن يختار الأحسن منهما كقوله:

وقفت وما في الموت . . . . . . (البيتان)

فإن عَجُز كل منهما ملائم كلا الصدرين، لكنه اختار هذا الترتيب، لأن قوله: «كأنك في جفن الردى وهو نائم»، سيق لتمثيل السلامة في مقام العطب، فجَعْلُه باقيا في موضع القطع بالهلك أنسب من جَعْلِه ثابتا حال مرور الأبطال به مهزومة.

وأيضا فتأخير قوله: «ووجهك وضاح وثغرك باسم»، تتميم لوصف، وتفريع على أصل يفوتان بالتقديم، فالوصف هو ثباته في الحرب، والتتميم هو أن ذلك الثبات لاحتقاره كل عظيم، كما يفيده الوضاحة والتبسم، والتفريع على الأصل، هو أن الوضاحة والتبسم عند مرور الأبطال منهزمين مكلومين فَرْعُ ثباته في الحرب حين لاشك في الموت لواقف، والآية الكريمة من هذا القبيل إذ لم يراع فيها مناسبة الرِّي للشبع والاستظلال لِلُّبس، بل روعيت المناسبة بين اللبس والشبع في عدم الاستغناء عنهما، وأنهما من أصول النعم، وبين الاستظلال والرِّي، لكونهما تابعين لهما ومكملين.

وبعضهم جعل الجوع والعرى: الخُلُوُّ الذى يستعقب الألم، ومناسبة الظمأ والضحو: الحرقة والالتهاب، فكأنه قيل: لا يخلو باطنك وظاهرك عما يهمهما، ولا يؤلمك حرارة الباطن والظاهر.

غير أن الشهاب في «عنايته» ارتضى الأول، وقال: إنه سر بديع من أسرار المعاني، وهو الوصل الخفي وسماه في «الانتصاف» قطع النظير[1].

---

(١) الانتصاف لابن المنير على هامش الكشاف (جـ٣/ ٧٢).

وجعل (صاحبُ الكشاف) الأربعةَ أصولَ الكَفاف، ولم يتعرض للمناسبة حيث قال: «إن الشِّبع، والرِّى، والكُسْوة، والكِنّ، هى الأقطاب الأربعة التى يدور عليها كفاف الإنسان، فَذَكَّره استجماعَها فى الجنة، وأنه مكفى لا تحتاج إلى كفاية كافٍ، ولا إلى كسْب كاسب، كما يحتاج لذلك أهل الدنيا، وذكرها بلفظ النفى لنقائضها التى هى الجوع، والعرى، والظمأ، والضحو، ليطرق سمعه بأسامى الشقوة التى حذره منها، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها»(١).

ومما يدل على أهمية النظير فى بلاغة الكلام، ما روى أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ قوله تعالى: «فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم» ولم يكن الأعرابى يقرأ القرآن، فقال: إن كان هذا كلام الله فلا، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنه إغراء عليه، وقد تحقق فقه الأعرابى، فختام الآية: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، و(العزة والحكمة) هما اللتان تناسبان من يَزَل من بعد ما وضح الحق وتبين(٢).

وتروى الأخبار أن زيد بن ثابت كان يكتب ما يُملى عليه الرسول ﷺ فأملى عليه الآية التالية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ...﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤]، وهنا نهض صحابى آخر وهو - معاذ ابن جبل - فقال: فتبارك الله، فضحك الرسول ﷺ فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال: بها ختمت»(٣)، وتلك الآية حقا مختومة بقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

---

(١) المواهب الفتحية (جـ١/ ١١٠)، الكشاف (جـ٣/ ٧٢).

(٢) معترك الاقتران (ج / ٤٠) البحر المحيط (جـ٣/ ١٦٣).

(٣) الاتقان (جـ٢/ ١٧٠)، معترك الأقران (جـ١/ ٧٦) وروى أن الذى أتمها عمر - وروى أنه ابن أبى السرح (البحر المحيط جـ٦/ ٣٩٩).

وروى أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ قوله تعالى: «وحملناه على ذَاتِ ألواحٍ ودَسُر، تجرى بأعْيننا جزاءً لمن كان كَفر» (بفتح الكاف).

فقال الأعرابى لا يكون.

«فقرأها الرجل - بضم الكاف وكسر الفاء - فقال الأعرابى يكون»(١).

وحكى أن جريرا والفرزدق كانا يتهاجيان، فأنشأ ينشد جرير بحضرة الفرزدق قصيدته التى هجا بها الراعى، يقول فيها:

فَغُضِّ الطَّرف إنك من نُمَيرٍ ... فلا كعْبًا بلغْتَ ولا كِلابَا

فلما انتهى إلى قوله:

لها برصٌ بجانب أسْكُتَيْها ... ...

وكان الفرزدق فى عنقفته شيبا، فأحس الفرزدق بتمام البيت، فغطى عنقفته بيده، فقال: قبحك الله قبل أن يتلفظ جرير بعَجُز البيت وهو قوله:

... ... كعنقفة الفرزدق حين شابا(٢).

* * *

---

(١) البيان والتبيين (جـ٢/ ١٧١).

(٢) الأقصى القريب ١٠٤، الأسكتان: بالفتح ويكسر، شفر الرحم أو جانباه، الأعقف: الأعرابى الجافى، والأعوج والمنحنى (قاموس).

ائتلاف اللفظ مع المعنى

قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ﴾.

[آل عمران: ٥٩]

* * *

الله سبحانه وهو بسبيل نفى الألوهية عن عيسى - عليه السلام - جعل خلقه من تراب كآدم، فعدل - سبحانه - عن الطين الذى أخبر فى كثير من مواضع الكتاب العزيز أنه خلق آدم منه، منها قوله: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ ﴾ ويقول حكاية عن إبليس: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [ص: ٧١ ، ٧٦]، فعدل عز وجل - وهو أعلم - عن ذكر الطين الذى هو مجموع التراب والماء إلى ذكر مجرد التراب، لأنه أدنى العنصرين وأكثفهما، لما كان المقصود مقابلة من ادعى فى المسيح الألوهية بما يُصغِّر أمرخلقه عند من ادعى ذلك.

فلهذا كان الإتيان بلفظ «التراب» أمتن فى المعنى من غيرها من العناصر، ولو كان موضعه غيره لكان اللفظ غير مؤتلف بالمعنى المقصود.

ولهذا ذكَّر المؤمن صاحبه الكافر بأصله المهين، فقال: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ، أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ، ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ، ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ ﴾.

[الكهف]

ومعنى ائتلاف اللفظ لمعناه: أنه إن كان فخما كانت ألفاظه فخمة، وإن كان غريبا كانت ألفاظه غريبة، وإن كان متداولا كانت ألفاظه متداولة، وإن كان سهلا كانت ألفاظه سهلة، وإن كان متوسطا بين الغرابة والاستعمال فألفاظه كذلك.

ولما أراد - سبحانه - الامتنان على بنى إسرائيل بعيسى - عليه السلام - أخبرهم عنه أنه يخلق لهم من الطين كهيئة الطير[1] تعظيما لأمر ما يخلقه بإذنه إذ كان المعنى المطلوب الاعتداد عليهم بخلقه، ليعظموا قدر النعمة به.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ...﴾ [هود: ١١٣]

فالله سبحانه لما نهى عن الركون للظالمين، وهو الميل إليهم، والاعتماد عليهم، كان ذلك دون مشاركتهم فى الظلم، أخبر أن العقاب على ذلك دون العقاب على الظلم، وهو مَسُّ النار، دون الدخول فيها والإحراق والاصطلاء، وإن كان المس قد يطلق ويراد به الاستئصال بالعذاب (مجازا)[2]، ولما كان المس أول ألم أو لذة يباشرها الملموس جاز أن يطلق على ما يدل عليه استصحاب تلك الحال مجازا، والحقيقة ما ذكرناه، وهو فى هذه الآية على حقيقته.

وقد ذكر الرافعى فى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم]، أن الآية جاءت فى معرض الإنكار على العرب، إذ وردت فى ذكر الأصنام وزعمهم فى قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله مع وأدهم البنات، فقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم] فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملائمة لغرابة هذه القسمة التى أنكرها»[3].

ومن المناسبة المعنوية قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ، وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام].

---

(١) الآية ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي ... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي ...﴾ [المائدة: ١١٠].

(٢) كقوله تعالى فى فداء أسرى بدر: ﴿لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال].

(٣) سيأتى تفصيل ذلك فى السجع.

فإنه تعالى لما قَدَّم نفى إدراك الأبصار له، عطف على ذلك قوله: «وهو اللطيف» خطابا للسامع بما يفهم، إذ معترف العادة أن كل لطيف لا تدركه الأبصار، ألا ترى أن حاسة البصر لا تدرك إلا اللّون من كل متلوِّن والكون من كل متكون، ولذلك لما قال: «وهو يدرك الأبصار» عطف على ذلك قوله: «الخبير»، تخصيصا لذاته سبحانه بصفة الكمال، لأن كل من أدرك شيئا كان خبيرا بذلك الشيء.

وكذلك قوله تعالى حكاية عن قوم شعيب: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧)﴾ [هود]

فإنه لما تقدم فى الآية ذكر العبادة، وتلاه ذكر التصرف فى الأموال اقتضى ذلك ذكر (الحليم الرشيد) - على الترتيب - لأن (الحلم) يناسب العبادات، و(الرشد) يناسب الأموال، ولهذا كان (الرشد) معتبرا فى تمكين القاصر من أمواله.

فالبيان والبلاغة تقتضى أن يؤتى باللفظ الأدل على المعنى المقصود والأنسب كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا...﴾ [البقرة: ٦٠]، وقوله تعالى فى موضع آخر: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

فإنه تعالى لما قال «استسقى موسى» ناسب «انفجرت»، ولما قال: «إذ استسقاه قومه» ناسب «فانبجست»، لأن استسقاء موسى - عليه السلام - أبلغ من استسقاء قومه، والانفجار أبلغ من الانبجاس، لأن مقلوباته أمس بالماء من مقلوبات الانبجاس(١).

---

(١) الأقصى القريب ٨٨.

وقد تختلف الفاصلتان مع أن المتحدث عنه في الآيتين واحد، ويكون ذلك لمغزى عظيم، ومعنى يشير إليه المولى سبحانه وتعالى، ومثل ذلك:

يقول الله تعالى: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ، إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم].

ويقول: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل].

وإذا تأملنا سبب الاختلاف في الفاصلتين، لرأينا أن القرآن راعى في الفاصلة المعنى المراد من الآية، ففي الآية الأولى راعى موقف الإنسان من نعم الله فهو ظلوم كفار، وفي الآية الثانية راعى مقابلة المولى سبحانه نكران الجميل والظلم وكفران النعم بالغفران والرحمة، فكان ختام الآية الأولى متفق مع الحديث عن صلة الإنسان بالله، وختام الثانية متفق مع الحديث عن الله جل جلاله.

مثل ذلك قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) ﴾ [الجاثية].

وقوله تعالى: ﴿ ...مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت].

فسر الفاصلة في الآية الأولى أن ما سبقها كان حديثا عن منكرى البعث فناسب الحديث عنه، أما الثانية فناسب خَتْمُها معناها: من جزاء كلٍّ بما يستحق.

* * *

وقد تكون المخالفة فى الفواصل مع تماثل ما سبقها بغية تعديد الأوصاف وإثباتها، حتى تستقر فى النفس، كقوله تعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥].

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

فالحق تبارك وتعالى يريد أن يبين أن من لم يحكم بما أنزل الله فهو ساترٌ لما أنزل الله، ظالم لنفسه، فاسق بهذا الستر، أو أن من لم يحكم بشرع الله فقد كفر به، وظلم نفسه وغيره، وخرج عن حدود العدالة والاستقامة[١].

* * *

١) التعبير الفنى فى القرآن ٢٠٦.

الإبــداع

قد يجتمع فـى القرينة الواحدة، أو فى البيت من الشـعر، عدة ضروب من البديع، وعندئذ يوصف الكلام بالإبداع.

وقد استخرج ابن أبى الإصبع ما يزيد على عشرين نوعا من البديع فى قوله تعالى[1]: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ، وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ، وَغِيضَ الْمَاءُ ، وَقُضِيَ الأَمْرُ ، وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ، وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود]، ومنها:

١- المناسبــة التامة بين «أقْلعى، وابلــعى»، والمناسبة اللفظـية: هى توخى الإتيان بكلمات متزنات، فإن كانت الكلمات مقفاة كانت المناسبة تامة، كما هنا - وإلا كانت غير تامة، مثل: أوانس وذوابل.

٢- المطابقة بين «السماء والأرض».

٣- المـجاز فى قـوله: «يا سـماءُ»، فـإن المـراد - والله أعلم - يا مـطر السماء، أو يا سحابة السماء.

٤- والاستعارة فى موضعين: استعارة الابتلاع للأرض، والإقلاع للسماء.

٥- والإشارة فى قوله: «وغيض الماء» فإنه سبحانه أشار بهاتين اللفظين إلى انقطاع مادة الماء من مطر السماء ونبع الأرض، وذهاب الماء الذى كان حاصلا على وجـه الأرض قبل الإخبار، إذ لو لـم يكـن ذلك لما غاض الماء.

والإشارة: عبارة عن إشارة المتكلم إلى معـان كثيرة بلفظ يشبَّه لقلته

(١) انظر تحرير التحبير صفحات (١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٧، ٤٢٥، ٤٥٨، ٦١١).

واختصاره بإشارة اليد، فإن المشير باليد يشير دفعة واحدة إلى أشياء لو عبر عنها بلفظ لاحتاج إلى ألفاظ كثيرة جدا.

٦- والتمثيل فى قوله: «وقضى الأمر»، وحقيقة هذا: أى هلك من قُضى هلاكه، ونجا من قدِّرت نجاته، وإنما عدل عن اللفظ الخاص إلى لفظ التمثيل لأمرين: أحدهما اختصار أمر اللفظ، والثانى كون الهلاك والنجاة كان بأمرٍ مُطَاعٍ، إذا الأمر يستدعى آمرا، وقضاؤه يدل على قدرة الآمر، وطاعة المأمور، ولا يحصل ذلك من اللفظ الخاص.

٧- والإرداف فى قوله: «واستوت على الجودى» فإن حقيقة ذلك: وجلست على هذا المكان، فعدل عن لفظ المعنى الخاص به إلى ردفه، وإنما عدل عن لفظ الحقيقة لما فى (الاستواء) الذى هو لفظ الإرداف من الإشعار بجلوس متمكن لا زيغ فيه ولا ميل، وهذا لا يحصل من قولك: جلست، أو قعدت، أو غير ذلك من ألفاظ الحقيقة، إذ المراد - والله أعلم - الإخبار بنفى الأسباب الموجبة خوف أهل السفينة من السفينة فى حالتى حركتها وسكونها، وذلك لا يحصل إلا بلفظ «الاستواء» دون غيره.

٨- والتعليل لأن «غيض الماء» علة «الاستواء».

٩- والاحتراس فى قوله: «وقيل بُعدا للقومِ الظالمين» فلو اقتصر سبحانه على لفظة «الظالمين» دون لفظة «القوم» لتوهم متوهم أن آلة التعريف فى «الظالمين» للجنس، وهو خلاف المراد، فإن المراد من «الظالمين» هنا قوم نوح الذين تقدم ذكرهم فى قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨]، وقوله: ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٣٧﴾ [هود] فأتى سبحانه بلفظ «القوم» التى الألف واللام فيها للعهد ليبين أنهم القوم الذين سبق ذكرهم، ووَصفهم

بالظلم، كما وصفهم فى أول الكلام بالظلم (آية هود ٣٧ السابقة)، وذلك مما يوضح المعنى ويبينه.

فعلم أن لفظة «القوم» ليست فضلة فى الكلام، وأنه يحصل بسقوطها لَبْسٌ فى المعنى.

١٠- وحسن النسق: فنحن نرى إتيان هذه الجمل معطوف بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذى تقتضيه البلاغة لأنه - سبحانه - بدأ بالأهم، إذ كان المراد إطلاق أهل السفينة من سجنها، ولا يتهيأ ذلك إلا بانحسار الماء عن الأرض، فلذلك بدأ بالأرض، فأَمَرَها بالابتلاع، ثم علم - سبحانه - أن الأرض، إذا ابتَلَعَتْ ما عليها من الماء، ولم تُقْطَع مادة الماء تأذى بذلك أهل السفينة عند خروجهم منها، وربما كان ما ينزل من السماء مُخلفا لما تبتلعه الأرضُ، فلا يحصل الانحسار، فأمر سبحانه السماء بالإقلاع بعد أمره الأرض بالابتلاع.

ثم أخبر بقوله: «غِيضَ الماءُ» عند ما ذهب ما على الأرض، وانقطعت مادة السماء، وذلك يقتضى أن يكون ثالث الجملتين المتقدمتين.

ثم قال تعالى: «وقُضِى الأمْرُ» أى هلك من قُدِّرَ هلاكه، ونجا من قضيتْ نجاته، وهذا كنه الآية، وحقيقة المعجزة، ولابد أن تكون معلومة لأهل السفينة، ولا يمكن علمهم بها إلا بعد خروجهم منها، وخروجهم منها موقوف على ما تقدم، فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون هذه الجملة رابعة الجمل.

وكذلك (استواء السفينة على الجودى)، أى استقرارها على المكان الذى استقرت فيه استقرارا لا حركة معه، لتبقى آثارها آية لمن يأتى بعد أهلها، وذلك يقتضى أن يكون بعد ما ذكرنا.

وقوله سبحانه: «وَقِيلَ بُعْدًا لِلقَوْم الظالمين» وهذا دعاء أوجبه الاحتراس ممن يظن أن الهلاك ربما شمل من لا يستحق فدعا - سبحانه - على الهالكين ووصفهم بالظلم احتراسا من هذا الاحتمال، وذلك يقتضى أن تكون بعد كل ما تقدم.

فنرى فى الآية حسن النسق، وكيف وقع القول فيه وفْق الفعل سواء.

١١- وائتلاف اللفظ مع المعنى: فكل لفظة لا يصلح موضعها غيرها.

١٢- والإيجاز، لأنه سبحانه - اقتص القصة بلفظها مستوعبة بحيث لم يخل منها بشيء فى أخصر عبارة.

١٣- والتسهيم: لأن أول الآية إلى قوله «أقلعى» يقتضى آخرها، فما تقدم من الكلام يدل على ما تأخر منه.

١٤- والتهذيب: لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن كل لفظة سمحة سهلة، ومخارج الحروف عليها رونق الفصاحة، مع الخلو من البشاعة والتركيب، سليمة من التعقيد وأسبابه.

١٥- وحسن البيان: من جهة أن السامع لا يتوقف فى فهم معنى الكلام، ولا يشكل عليه شيء من هذا النظام، لأن الفاصلة مستقرة فى قرارها، مطمئنة فى مكانها، غير قلقة ولا مستدعاة.

١٦- الانسجام: وهو تحدر الكلام بسهولة كما ينسجم الماء وينساب انسياب العليل من الهواء.

ثم ختم ابن أبى الإصبع كلامه بقوله:

«فهذه الآية عدة ألفاظها سبع عشرة لفظة تتضمن أحدا وعشرين[1] ضربا من البديع».

* * *

(١) بقية النكات البلاغية يراجع فيها(تحرير التحبير)المرجع السابق.

وقد يتساءل عـن سر اختيار بعض الألفاظ دون بـعض، بل إيثار حرف دون غيره، وعن السبب فى هذا التنظيم والتـنسيق فى هذا النظم الكريم، وإليك بعض الخواطر لعلماء البلاغة:

١- أوثر فى نداء الأرض «يا» دون الهمـزة، لما يدعو اجتماعهـا مع الهمزة فى «أرض» إلى ثقل على اللسان فى النطق بهما.

٢- وفضـلت «يا» على «أيـا» لما فى هـذه من زيادة تنبـيه ليـست الأرض - وهى رهن أمر الله - فى حاجة إليه.

٣- ونكِّرت «الأرض» لما فى ذلك من تـصغير أمرها فالمقـام هنا يستدعى التصغير، لأنها ماثلة أمام القوة العليا التى تتضاءل دونها قوى الطبيعة.

٤- وتُصَوِّر كلمة «ابلعى» ما يراد أن تصنعه الأرض بمائها، وهو أن تبتلعه، بسرعة، بل وفى غـمضة عين، وفضلت كلمة «ابلـعى» على «امتصى» مثلا، لأنها لا تدل على ما تدل عليه الأولى من السرعة فى التشرب.

٥- وإضافة الماء إلى «الأرض» فى قوله «مـاءك» ما يوحى بأنها جديرة بأن تمتص ماءً هو ماؤُها، فكأنها لم تكلَّف من أمرها عسرا.

٦- ويقال مثل ذلك فى «ويـا سماء أقلعى» مع ملاحظة التناسـق الموسيقى بين «ابلعى، أقلعى».

٧- وبنى «غيض» للمجهول مصـورا بذلك إحساس من شاهدوا هذا المنظر الطبيعى، فـهم قد رأوا الماء يغيض، والأمرَ يَتِمّ، وكـأن ما حدث كان من تلقاء نفسه فى سرعة، دون أن يكلف عناء أو مشقة.

٨- واختيرت كلمة «استوت» دون «رست» مـثلا لما فى كلمة «استوت» من الدلالة على الـثبات المستـقر، ولما فيـها من الدلالة على التـمكن من

الاطمئنـان والسلام، فالسفـينة مستولـية على الطوفان، وليـس الطوفان مستوليا عليها، فإذا لا يبتلعها.

٩- وبُنى الفعل «قيل» للمجهـول إشارة إلى أن هذا القول قد صدر ممن لا يُعَد كثرة، حـتى لكأن أرجاء الكون تردد هذا الدعاء سخطـا وتبرما بما حدث من قوم نوح الذين أصموا آذانهم، واسـتغشوا ثيابهم، وأصروا، واستكبروا استكبارا.

١٠- واختـيرت كلمـة «بعدا» دون «هلاكـا» مثلا، للإشـارة إلى أن هلاك هؤلاء إنما قصد به إبعادهم عن الـفساد فى الأرض والسخرية بمن آمن وعمـل صالحا، كـما قـصد بذلك إبـعادهم عن رحـاب الرحمـة التى وسعت كل شىء إلا هم، كما أن فيه احتقارا لهم لأن القرآن أشاح عن مخاطبـتهم، وأغفل حالهم، واكـتفى بقوله فى هذا المـوقف الشديد: «بعدا للقوم الظالمين»، وفى هذه الكلمة راحة نفـسية لمن آمن وصدق وركب السفينة مع نوح، فتخلصوا من المآل الشنيع.

وقصـرالجمل فى الآية توحـى بسرعة انقـضاء عهد هـؤلاء الذين لم تطمئن قلوبهم بذكر الله.

١١- وقولـه تعالى: «ابـلعى ماءك» أمـر على سبـيل الإلزام، ويجـرد من الأرض الصماء إنسانا عاقلا شاخصا أمام البصر، يستجيب لأمر الله.

١٢- «ويا سماء أقلعى» النمط نفسه التى سارت عليه فى الجملة الأولى فى السرعة الخاطفة.

١٣- «وغيض الماء. وقضى الأمر» فيهما النتـيجة، ففى غمضة عين جفت الأرض، ويبـست، وأسدل السـتار على المـأساة، فالـموقف يسـتلزم الإيجاز الذى يترك النفوس وقدْ هَالهَا الجزع.

١٤- «استوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين»، تلكم آثار المأساة، نجاة لقوم وهلاك لآخرين.

١٥- وبناء الأفعال للمجهول «قِيلَ ، غِيضَ، قُضِيَ» على نسق واحد يترك النفوس فى تيه من الحيرة، فمن قال للأرض؟ ومن أمر السماء؟ وبأمر من انقضى الأمر؟.

***

ومن استعراض الآية الكريمة يتضح لنا أن اللفظة فى حد ذاتها أمر عادى يقدر عليه كل الناس، فإذا سُلِكَت فى نظم، واستقامت فى تعبير، وأخذت مكانها فى أسلوب، كان لها دلالة فنية ترتفع وتنخفض، وهى من أرفع الدلالات فى أسلوب القرآن»[١].

***

(١) انظر فكرة النظم بين وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم (١٣١).

المبالغة

قال تعالى فى وصف أهوال يوم القيامة: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ[1] وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ ، وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الحج]

* * *

فى الآية يصف الله تعالى يوم القيامة بأن هَوْلَهُ إذا فاجأ المرضعة وقد ألقمت ثديها للصبى نزعته، لما يلحقها من الدهشة والفزع، ولو قال تعالى: (تذهل كل امرأة عن ولدها) لكان بيانا حسنا وبلاغة كاملة، وإنما أراد أن يزيد فى الفزع، ويضاعف فى الشدة، فخص المرضعة للمبالغة، لأن المرضعة أشفق على ولدها لمعرفتها بحاجته إليها، وأشغف به لقربه منها، ولزومها له لا يفارقها فى أية لحظة.

فهذه الأوصاف ليوم القيامة تجعل كل عاقل يفكر فى عاقبة الأمر، ويستعد للنجاء من هذا الهول والفزع الأكبر.

وقد سمى بعض علماء البلاغة هذا النوع من الوصف: «الإفراط فى الصفة»[2]، وسماه آخرون: «المبالغة»[3].

(١) الذهول: الذهاب عن الأمر بدهشة، المرضعة: التى ألقمت ثديها الصبى، المرضع: التى من شأنها أن ترضع.

(٢) البديع (١١٦).

(٣) نقد الشعر (٧٧).

وعرفوها: بأنها ادعاء بلوغ وصف فى الشدة، أو فى الضعف حدًّا مستحيلا، أو مستبعدا.

وقد اختلف النقاد والبلاغيون، ووقفوا من المبالغة على ثلاثة آراء.

١- رأى قوم أن أجود الشعر أكذبه، وخير الكلام ما بولغ فيه، ويحتجون بما جرى بين النابغة الذبيانى وبين حسان فى استدراك النابغة عليه تلك المواضع فى قوله:

لنا الجفَنَاتُ الغُرُّ يلمعْنَ فى الضُّحى   وأَسيافُنا يَقْطرْن من نَجْدةٍ دما

فإن النابغة عاب على حسان ترك المبالغة[1]، إذ قال: الجفنات، ولو قال: (الجفان)، لكان أكثر، وقال: يلمعن بالضحى، ولو قال: (يبرقن بالدجى) لكان أبلغ فى المديح، لأن الضيف أكثر طروقا بالليل، وقال: يقطرن دما، ولو قال: (يجرين) لكان أكثر[2].

كما يعتمدون على ما ذهب إليه البحترى فى قوله:

كلفتُمونا حُدُودَ منْطِقِكم   فى الشِّعر: يَكْفِى عن صدْقهِ كَذبُه

فقد أراد كلفتمونا أن تجرى مقاييس الشعر على قواعد المنطق، والقول المحقق، حتى لا نقول إلا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به، مع أن الشعر يقوم على التخييل، والإغراق فى المدح والذم والوصف، وسائر أغراض الكلام، ففى هذا يجد الشاعر طريقه إلى الإبداع والإجادة، ويبعد أن يراد بالكذب معناه، فيعطى الممدوح - مثلا - حظا من الفضل والمدح ليس له، لأن الكذب لا يبين بالحجج المنطقية.

٢- وقوم يرون أن المبالغة من عيوب الكلام، ولا يرون من محاسنه إلا ما

(١) تحرير التحبير (١٤٨).

(٢) القصة بالأغانى (جـ٩/ ٣٤٠)، وشك فيها بعض النقاد.

خرج مخرج الصدق، وجاء على منهج الحق، ويزعمون أن المبالغة من ضعف المتكلم وعجزه عن أن يخترع معنى مبتكرا، أو يفرِّع معنى من معنى، أو يُحَلِّيَ كلامه بشيء من البديع، أو ينتخب ألفاظا موصوفة بصفات الحسن ويجيد تركيبها، فإذا عجز عن ذلك كله أتى بالمبالغة لسد خلله، وتتميم نقصه، وحجة هؤلاء قول حسان بن ثابت:

وإنما الشِّعرُ لُبُّ المرءِ يعْرِضُه على المجالس: إن كيْسًا وإن حُمُقًا
وإنَّ أشْعَر بيت أنْتَ قائلُهُ بيتٌ يقالُ إذا أنْشَدْته صدقَا

فيجب ترك المبالغة إلى الصدق والتحقيق، لأن ذلك أحب إليه، وآثر وأبقى، وثمره أحلى.

٣- وقوم توسطوا بين المذهبين، فقبلوا المبالغة إذا كان طابعها الاعتدال، وهذا المذهب استند إلى قبول المعتدل من المبالغة على ما ورد منه من القرآن الكريم، وهو معيار السلامة، وميزان الاعتدال.

أقسام المبالغة:

١- التبليغ: وهو ما كان الوصف المدعى فيه ممكنا عقلا وعادة، وذلك كقول امرئ القيس يصف فرسه بأنه لا يَعْرَق وإن كثر عَدْوُه:

فعادَى عِداءً بين ثوْرٍ ونعْجةٍ دِراكًا فلم ينْضَحْ بماءٍ فيُغْسَلِ(١)

ادعى الشاعر أن فرسه أدرك ثورا وبقرة فى مضمار واحد، ولم يعرق، وهذا مما يمكن عقلا وعادة.

---

(١) العداء: بكسر العين، الموالاة بين الصيدين يصرع أحدهما إثر الآخر فى شوط واحد، الثور: المراد به الذكر من بقر الوحش، النعجة: الأنثى منه، دراكا: متتابعا.

ومثله قول المتنبى:

وأَصْرَعُ أىَّ الوَحْشِ قفَّيْتُهُ بِهِ ... وأَنْزِلُ عنه مثْلُهُ حينَ أركبُ(1)

فإذا جرى بفرسه وراء وحش لحقه وصرعه، وإذا نزل عنه بعد الصيد كانت حالته شبيهة بحالته حينما ركبه، فلم يلحقه تعب، وهذا وصف ممكن عقلا وعادة.

٢- **الإغراق**: وهو ما كان الوصف المدعى ممكنا عقلا - لا عادة - وهو على ضربين:

أولا: أى يقترن به ما يُقَرِّبُه من نحو: (لو، ولولا، وكاد، وكأن)، وذلك كقول امرئ القيس فى وصف محبوبته:

من القَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لو دَبَّ مِحْوَلٌ ... من النَّمل فَوْق الإِتْب منها لأثَّرَا(2)

يصفها بالرقة ونعومة الجلد حتى إن النملة لو مشت فوق ثيابها لأثرت فى جسمها، وقرّب الدعوى بلفظ «لو»، حتى جعل السامع يصغى إلى ما يقوله:

ومثله قول المتنبى:

كفى بجسْمِى نُحولا أَنَّنى رجلٌ ... لولا مخاطَبَتى إيَّاك لم تَرَنى

فقد بلغ من الهزال الغاية، ولولا كلامى لم يقع نظر الزائر علىّ، فأغرق فى وصف نفسه بشدة النحول، ولكنه قـرّب الدعوى من العقل بلفظ «لولا»، وبذلك أملى على السامع الإصغاء لما يقول:

ثانيا: أن يجئ مجردا عما ذكر من المُقرِّبات، وذلك كقول الشاعر:

ونُكرمُ جارنا ما دام فِينا ... ونُتْبِعُهُ الكرامةَ حيْثُ مالا

---

(1) أصرع: أطرحه على الأرض، قفيته: أتبعته.

(2) المحول: ما أتى عليه الحول، الإتب: درع المرأة وما قصر من الثياب، أو قميص بلا كمين، القاصرات الطرف: المحببات إلى أزواجهن اللاتى يقصرن نظرهن عليهم ولا يتطلعن لغيرهم.

فقد ادعى أن جاره لا يرحل عنه إلى مكان آخر إلا وهو يرسل الكرامة والعطاء إليه أينما ذهب، وهذا سائغ عقلا ممتنع فى العادة.

ومثله قول امرئ القيس:

تنوَّرْتُها من أَذْرِعَاتٍ وأهلُها ... بيَثْرِبَ، أَدْنَى دارِها نظرٌ عالِى(١)

فرؤية النار وهى بالمدينة من أذرعات فى الشام جائزة عقلا، لكنها ممتنعة فى العرف والعادة.

٣- **الغلو**: وهو ما يكون الوصف المدعى فى غير ممكن عقلا ولا عادة.

وفى هذا يتسابق الشعراء المجيدون فى مدحهم وهجائهم وفخرهم ووصفهم، وهو نوعان: مقبول ومردود.

فالمقبول على أنواع:

(أ) أن يقترن به ما يقرب به إلى الصحة والإمكان، كلفظ «يكاد، ولو، ولولا، ويخيل» وما شاكل ذلك، كقوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ**﴾.

[النور: ٣٥]

فإضاءة الزيت مع عدم مسيس النار مستحيلة عقلا وعادة، وبدخول «يكاد» خرج ذلك عن المحال وأفاد أنه لم يقع، ولكن قرب من الوقوع مبالغة.

ومثله قوله تعالى: ﴿**وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ، فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ، وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ**﴾ [النور: ٤٣].

---

(١) تنورتها: أبصرت نارها، أذرعات: بلد فى الشام، يثرب: المدينة.

وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾. [الحشر: ٢١]

ومثله قول البحترى:

ولوْ أنَّ مشْتاقًا تكلَّفَ فوق ما   فى وسُعْهِ لسَعَى إليك المِنْبَرُ

فلا تقر العادة، ولا يتصور العقل سعى المنبر إلى الممدوح، لكنه قربه من الإمكان بذكر «لو».

ومن شواهده المستحسنة قال مهلهل:

فلولا الريحُ أُسْمِعُ مَنْ بحَجْرٍ   صليلَ البيْضِ تُقْرع بالذُّكُورِ(١)

وقد قيل: إن هذا البيت أكذبُ بيت قالته العرب، وإن بيت امرئ القيس فى صفة النار أقربُ منه إلى الحق، لأن فيه ما يخلص به من الطعن، وهو اعترافه ببعد مسافة النار، وأنه لم يُدْنها إلا النظر العالى، وقالوا: حاسة البصر أقوى من حاسة السمع، لأن أقوى سمع وأصحَّه إنما يسمع أعظم صوت من ميل واحد بشرط حمل الريح ذلك الصوت إلى جهة السامع فى الليل عند هدوء الأصوات، وسكون الحركات، وحاسة البصر تُبصر الجواهرَ الشفافة، والأجسام الصقيلة، والأجرام المضيئة، من بُعْدٍ يتجاوز الحد بغير واسطة، ورؤيةُ النيران العظيمة المرتفعة مواقدها للناظر المرتفع مكانه ممكنة من البعد ما لم يمنع من ذلك ضوء النهار، ويحول مخروط ظل الأرض دونها، وقد كانت زرقاء اليمامة ترى الجيوش خيلها ورَجِلَها، وتحرز أعدادها من مسيرة ثلاثة أيام، وتنذر به قومها، ويقع الأمر

(١) حجر: مدينة اليمامة وأم قراها، البيض: واحدته بيضة وهى الخوذة التى تلبس على الرأس فى الحرب، الذكور: السيوف، والذكر منها اليابس الشديد.

على ما أخبرتْ به، وقد تواتر الخبر عنها بذلك، وضرب بها المثل، فلهذا رجحوا بيت امرىء القيس على بيت مهلهل.

لكن ابن أبى الإصبع يرى أن بيت مهلهل أقرب إلى الصدق والاستحسان من بيت امرىء القيس على شرطهم، فإنهم شرطوا أن كل كلام تجاوز المتكلم فيه حد المبالغة - الإمكان عقلا وعادة - إلى الإغراق والغلو، واقترن بما يقربه من الإمكان خرج من حد الاستقباح إلى حد الاستحسان، وقد تقدم فى بيت مهلهل «لولا» وهى من الحروف التى زعموا أن الكلام باقترانه بها يبعد من العيب بتة.

وليس فى بيت امرئ القيس شىء من ذلك، مع أنه قد صرح فى البيت الذى قبله أن النار إنما شبت فى وجه النهار عند رجوع المغيرة(١) من المغار حيث قال:

نظرتُ إليها والنجومُ كأنها مصابيحُ رهبانٍ تُشَبُّ لقُفَّال(٢)

وضوء النهار يمنع من رؤية النيران والكواكب وجميع الأجرام المضيئة، وهذا القدر يُدْخل بيت امرىء القيس فى باب الاستحالة مع خلوه مما يقربه من الإمكان(٣).

(ب) أن يتضمن نوعا حسنا من التخييل فيقربه إلى الصحة والإمكان، كقول المتنبى:

عقَدتْ سَنابِكُها عليها عِثْيراً لو تبْتغِي عَنَقًا عليهَ لأمكَنا(٤)

يقول: عقدت سنابك الخيل فوقها غبارا كثيفا بحيث لو طلب منها أن تسير عليه لأمكن لكثافته وكونه كالأرض، وهذا غير ممكن عقلا ولا عادة، لكنه خيل إلى وهم السامع كثرته وكونه كالجبال، فقربه ذلك إلى الصحة والإمكان.

وقد اجتمع النوعان فى قول القاضى الأرجانى يصف الليل:

---

(١) المغيرة: الرهبان العائدون من معابدهم آخر الليل.

(٢) الضمير فى «إليها، يعود إلى النار، تشب: توقد، المعنى: نظر إليها والنجوم قاربت الاختفاء لظهور ضوء الصبح وكأنها مصابيح رهبان أوقدت من أول الليل حتى إذا جاء آخره ضعف نورها وقل شعاعها.

(٣) تحرير التحبير (٣٣٥).

(٤) السنابك: جمع سنبك وهو طرف مقدم الحافر، العثير: الغبار، العنق: نوع من السير شديد.

يُخَيَّلُ لى أَنْ سُمِّرَ الشُّهْب فى الدُّجى وشُدَّت بأهدَابى إليهنَّ أجْفانى (١)

يقول: يخيل إلى أن الشهب محكمة بالمسامير لا تزول عن مكانها، وأن أجفان عينى قد شدت بأهدابها إلى الشهب فلا تنطبق لطول هذا الليل وبطء تَقَضِّيه، وهذا غير ممكن لا فى العقل ولا فى العادة، لكنه قصد إلى شيئين ما منهما إلا وهو مقرب للصحة والإمكان، فذكر لفظ (يخيل). وذلك من النوع الأول، ثم ما تضمنه من التخييل الحسن بادعائه أن هناك مسامير، وأن هناك حبالا كانت السبب فى توقف الشهب وشد الأجفان إليها، وذلك من النوع الثانى الذى يتضمن نوعا من التخييل بالصحة والإمكان.

(جـ) أن يُخرَج مُخرَج الخلاعة والهزْل، كقول الشاعر:

أَسْكَرُ بالأَمْسِ إنْ عزمتُ على الشُّر ب غداً،إنَّ ذَا من العجَب

فالسكر على هذا الحال من المحال عقلا وعادة، لكن حَسَّنهُ الهزْل لمجرد سرور المجالس ومضاحكته.

أما المردود كقول أبى نواس فى مدح هارون الرشيد:

وأَخفْتَ أَهل الشِّرك حتى إنَّه لتخافُك النُّطفُ التى لم تُخْلَقِ

وقوله أيضا:

حتى الذى فى الرحم لم يَكُ صورة لفؤاده مِنْ خوْفه خَفَقَان

وقول ابن هانئ الأندلسى مادحا:

ما شِئْتَ لاما شَاءَتِ الأَقدارُ فاحكم فإنك أَنْتَ الواحدُ القهارُ

ونحن إذا تأملنا شواهد صور المبالغة نجدها تتطور من عميق إلى أعمق

(١) الدجى: جمع دجية وهى الظلمة، الأهداب: جمع هدب وهو شعر أشفار العينين.

وذلك باختلاف الزمان والمكان، فبينما لا نرى فى الشعر الجاهلى إلا مبالغات مقبولة، نرى فيما بعده إغراقا مقرونا بما يقربه، ثم نجد غلوا جُرِّدَ مما يجعله مقبولا.

على أن بعض العلماء صحح مبالغة أبى نواس فيقول[1]: «إن أبا نواس لم يرد أن النطف تخاف، ولا أنها قبل أن تخلق مظنة للخوف، وإنما أساس المبالغة هنا فى الدراسة النفسية وفى العلاقة بين الانفعالات وآثارها الجسمية والعقلية بما هو مدروس فى علم النفس، فالخوف كما يقول بعض العلماء يظهر أثره أو الانفعال به فى صورتين: فهو إما أن يمد الخائف بجناحين يطير بهما، وإما أن يضرب عليه بالشلل المؤقت فيسلبه الحركة، فهل يريد أبو نواس أن يقول: إنك أخفت أهل الشرك حتى سرى الخوف إلى أصلابهم فانقطع ولدهم، والطب والحِسّ العام يعرفان هذه الظاهرة، أم يريد أن يقول: إن الخوف أصبح لهم غريزة تنتقل طبيعة من الآباء إلى الأحفاد، فهم خائفون، وذراريهم من بعدهم سيصابون بالخوف من أثر الوراثة؟.

وليس هذا الفهم أو ذاك بغريب على أبى نواس، وهو من نعرف اتصالا بالعلم والفلسفة، على أن الأمر لا يحتاج إلى فلسفة عميقة فيكفى أن يعرف أبو نواس كما يعرف سائر الناس أثر الخوف وأثر الانفعال حتى تنفعل شاعريته فتظفر بهذه العبارة المدوية... مثل هذا التحليل يُخْرِج المبالغة من حد الغلو ما دامت مستندة إلى فكرة.

* * *

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان (١٥٩).

الاستطراد

قال تعالى حاكيا نهاية قوم شعيب عليه السلام: ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا، وأخذت الذين ظلموا الصيحة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين (٩٤) كأن لم يغنوا فيها، ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود (٩٥) ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين (٩٦) ﴾ [هود].

* * *

سورة «هود» تلك تحكى نهايات قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى - عليهم السلام - وهذه الآية تحكى نهاية قوم شعيب بخاصة، والتى استغرقت أحداثها اثنتا عشرة آية (من آية ٨٣ - ٩٥)، وقد ختمت نهاية قوم هود - بأن أخذهم الله بالصيحة فهلكوا غير مأسوف عليهم - بقوله تعالى: «ألا بعدا لمدين»، ثم تركت هذه القصة إلى غيرها بقوله تعالى: «كما بعدت ثمود»، فقد اشتركا فى الذنب وسوء التصرف فاستويا فى سوء المنقلب ووخيم العاقبة، ثم رجعت الآية إلى الحديث الأصلى وهو عرض لنهاية قوم موسى.

وانتقال المتكلم من الكلام الذى هو مسترسل فيه إلى غيره - لمناسبة - ثم يرجع إلى ما كان فيه يسمى: الاستطراد، وهو قريب من الاعتراض، غير أن الاعتراض منه ما يقبح ويحسن، بخلاف الاستطراد فهو حسن كله.

فالاستطراد: ذكر الشىء فى غير محله - لمناسبة - بأن يخرج المتكلم من الكلام الذى هو مسترسل فيه إلى غيره - باستدعاء مناسبة - ثم يرجع إلى ما كان فيه.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا، ولباس التقوى ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون (٢٦) ﴾ [الأعراف].

قال الزمخشرى[1]: هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر السوءات وخصف الورق عليها[2] إظهارا للمنة فيما خلق من اللباس، ولما فى

---

(١) الكشاف (جـ٨/ ٧٦).

(٢) إشارة إلى الآية قبلها ﴿ فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين (٢٢) ﴾ [الأعراف].

العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعارا بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ...﴾

[لقمان: ١٣ - ١٦]

فقد وقع الاستطراد من وصية لقمان لابنه إلى وصيته - سبحانه - لعباده لما بينهما من المناسبة، ثم عاد إلى ما كان عليه من وصية لقمان لابنه حيث قال: «يا بنى إنها إن تك مثقال...» إلخ.

ومثله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦)﴾ [المزمل].

فقوله: «إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا»، استطراد لأنه وسَّطه بين أوصاف الليل، وما ذكره من أحكامه، ثم رجع إلى حال الليل بعد ذكره آية الاستطراد «إنا سنلقى...».

ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ...﴾

[الإسراء: ٧٨، ٧٩]

فقوله: «وقرآن الفجر... مشهودا»، من الاستطراد، فقد خرج من ذكر الليل إلى ذكر قرآن الفجر، ثم عاد بعده إلى ذكر الليل.

ومن الاستطراد قول السموأل بن عاديا اليهودى:

وإنا أناسٌ ما نرى القَتْل سُبَّةً إذا ما رأتْهُ عامرٌ وسَلولُ
يقرِّبُ حبُّ الموتِ آجالا لنَا وتكرهُه آجالُهم فتطولُ

فسياق القصيدة فى الفخر وبيان مآثر المجد، ولكنه استطرد منه إلى هجاء عامر وسلول، ثم عاد لغرضه المقصود.

وكذلك قول زياد الأعجم:

إذا ما اتقى اللهَ الفتى وأطاعه فليس به بأسٌ وإنْ كان من جَرْم

وما جاء منه فى المدح والهجاء معا قول بكر النطاح يمدح مالك بن طوق «من تغلب».

عرضْتُ عليها ما أرادَتْ من المُنى لتَرْضَى فقالتْ: قُمْ فجئنى بكوكب
فقلتُ لها: هذَا التعنُّتُ كلُّه كمن يَشتهِى لحمَ عَنْقَاء مُغْربِ
سَلِى كل شىء يستقيم طِلابُهُ ولا تذهبى يا بدْرُ بى كلَّ مذْهب
فأقسِم لوْ أَصبحتُ في عزِّ مالك وقُدْرته أعْيا بما رُمْتِ مطْلبى
فتى شَقِيَتْ أمواله بِنواله كما شقِيَتْ بكرٌ بأرْمَاحِ تغلب

يقول ابن أبي الإصبع(١): وهذا أبدع استطراد سمعته فى عمرى، فإنه قد جمع أحسن قَسَمٍ، وأبدع تخلص، وأرشق استطراد، وتضمن مدح الممدوح بالكرم وقبيلته بالشجاعة والظفر، وهجاء أعدائهم بالضعف والخور، وهذا لم يتفق لمن قبله ولا لمن بعده، حيث قال: «كما شقيتْ قيس بأرماح تغلب»، فهو كلام دخيل وارد على جهة الاستطراد.

(١) تحرير التحبير (١٣١)، العمدة (جـ٢/ ٣٣)، الطراز (جـ٣/ ١٧).

المذهب الكلامى

قال تعالى مستدلا على وحدانيته: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢١، ٢٢].

***

الله تعالى يستدل على وحدانيته بطريقة أهل الكلام، فيقول: «لو كان فيهما (السموات والأرض) آلهة إلا الله لفسدتا»، والمراد بالفساد خروجهما عن النظام الذى هما عليه، وتمام الدليل: ولكنهما لم تفسدا، فليس فيهما آلهة إلا الله، فاللازم - وهو الفساد - باطل فكذا الملزوم - وهو تعدد الآلهة -، فانتفى الثانى لانتفاء الأول.

وهذا الأسلوب سماه البلاغيون: المذهب الكلامى - الذى هو عبارة عن إثبات الدِّين بالبراهين العقلية، أو هو احتجاج المتكلم على المعنى المقصود بحجة عقلية تقطع المعاند له فيه.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

[الروم: ٢٧]

أى الإعادة أهون عليه من البدء، فهو أدخل تحت الإمكان، فالإعادة ممكنة.

وكذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام].

أى القمر آفل، وربى ليس بآفل، فالقمر ليس بربى.

وقوله: ﴿وقالتِ اليْهودُ والنّصارَىٰ نحنُ أبْناءُ اللهِ وأحِبّاؤهُ، قُلْ فلِم يُعذّبُكم بِذُنوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]، أى أنتم تعذبون، والبنون لا يعذبون، فلستم ببنين له.

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا»، وتمام الدليل: لكنكم ضحكتم كثيرا وبكيتم قليلا، فلم تعلموا ما أعلم.

ويروى أن أبا دلف العجلى قصده شاعر من بنى تميم، فقال له: ممن أنت؟، فقال: من تميم، فقال له أبو دلف:

تميمٌ بطُرْق اللُّؤمِ أَهْدَى من القَطَا ... ولو سلَكَتْ سُبْلَ الهداية ضلَّتِ

فقال له التميمى: بتلك الهداية جئت إليك، فأفحمه[1].

ومنه قول النابغة يعتذر إلى النعمان بن المنذر:

حلفتُ فلمْ أتركْ لنفسِك رِيبةً ... وليس وراء الله للمرء مذْهبُ
لئن كنت قدْ بُلِّغْت عنِّى خِيانة ... لَمبلِغُك الواشِى أُغشُّ وأكذبُ
ولكنَّنى كنت امرءا لِى جانبٌ ... من الأرْض فيه مُسْترادٌ ومذْهب
ملوك وإخوانٌ إذا ما مدحْتُهمْ ... أُحكَّمُ فى أمْوالهم وأُقرَّبُ
كفعْلك فى قومٍ أراك اصْطفيتهمْ ... فلم ترهُمْ فى مدْحهم لك أذْنبُوا

أى لا تعاقبنى على مدح الغسانيين المحسنين إلىّ، كما لا تعاقب قوما أحسنتَ إليهم فمدحوك، فكما أن مدح أولئك لك لا يُعَدّ ذنبا، فمدحى لمن أحسن إلىّ كذلك.

ومنه قول أبى تمام يستنهض المعتصم لمناجزة الحرب، وألا يعول على كلام المنجمين:

دع النجوم لُطرقِىٍّ يعيشُ بها ... وبالعزائم فانهض أيُّها الملكُ
إن النبىَّ وأصحاب النبى نهوْا ... عن النجوم وقد أبصرْتَ ما ملَكوا

---

(١) هذا القياس يفيد أن المجىء إليه ضلال.

وقد ذكر أهل العلم أن من أول سورة «الحج» إلى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾، مُنْطوٍ على خمس نتائج من عشر مقدمات، فالمقدمات من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، والنتائج من قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، إلى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾[1] [الحج: ١-٧]

وهذا النوع من البديع نسبت تسميته إلى الجاحظ، وزعم ابن المعتز أنه لا يوجد فى الكتاب العزيز - وهو محشو منه[2].

* * *

(١) راجع تحرير التحبير (١١٩).

(٢) المرجع السابق (١١٩).

المشاكلة

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ، قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) ﴾ [المائدة]

* * *

أطلقت «النفس» فى الآية الكريمة على ذات الله - سبحانه - لوقوعها فى صحبة «نفسى» المراد بها عيسى - عليه السلام- ، ولمشاكلة تلك اللفظة.

ومثل هذا اللون من البديع يسمى «المشاكلة».

وهى ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته.

واللفظ المشاكَلُ به «نفسى» موجود فى الآية الكريمة، لذلك تسمى المشاكلة فى الآية (تحقيقية).

وقد تكون الألفاظ المشاكَلُ بها غير موجودة، وإنما تفهم من السياق، وحينئذ تسمى المشاكلة (تقديرية)، كقوله تعالى خطابا لأهل الكتاب:

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) ﴾ [البقرة].

فـ «صبغة الله» مصدر مؤكد لمضمون قوله: «آمنا بالله»، والمعنى: تطهير الله، إذ الإيمان مطهر لنفوس المؤمنين، والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه «المعمودية» ويقولون على زعمهم أن الولد صار

بذلك نصرانيا حقا، فأمر الله المؤمنين أن يقولوا: صبغنا الله بالإيمان صبغته، ولم نصبغ صبغتكم أيها النصارى.

فلفظ «صبغة الله» قد وضع موضع» «تطهير الله» لوقوعه فى صحبة صبغة النصارى (تقديرا) لا تحقيقا، لأن (الصبغ) ليس مذكورا فى كلام النصارى، لكن لما كان غمس أولادهم فى الماء الأصفر يستحق أن يسمى صبغا، وإن لم يتكلموا بذلك حين الغمس، وكانت الآية منزلة فى سبب ذلك الفعل، صار كأن لفظ الصبغ مذكور.

ومن قبيل المشاكلة التحقيقية قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]

فقد سمى جزاء السيئة «سيئة» لتشاكل بها لفظ «السيئة» السابق، وفى هذا الأسلوب ما يؤدى إلى التنفير من فعلها حيث إن الجزاء على السيئة سيكون شديدا لا تقل شدته عن الأثر السيئ الذى يترتب على اقتراف المعاصى والسيئات.

واستخدام لفظ (السيئة) فى الجزاء عليها من قبيل «المجاز المرسل» لعلاقة السببية، وقد ساهمت المشاكلة مع المجاز المرسل فى جمال الأسلوب وسمو بلاغته.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ، أَوْ يَقْتُلُوكَ، أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال]، فقد سمى عقابُ الله لهم «مكرًا» ليشاكل مكر الكفار، زيادة فى روعتهم، ومبالغة فى تعنيفهم، وأن الجزاء سيكون فى غاية الشدة، وفيه مجاز مرسل لعلاقة السببية أيضا.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ (١) كُلُوا

---

(١) عن يمين وشمال: البستانين عن يمين، وشمال: مسكن كل واحد منهم، العرم: المطر الشديد، أكل: الثمر، الخمط: كل شجر ذى شوك، الأثل: شجر عظيم لا ثمر له، والأثل والسدر معطوفان على (أكل) (الكشاف جـ٣/ ٤٥٥).

مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ [سبأ]

فتسمية البدل - وهو بديل سَيِّء - جنتين من قبيل المشاكلة، وفيه ضرب من التهكم.

وقوله ﷺ: «إن الله لا يملُّ حتّى تَمَلُّوا» فالله تعالى لا يوصف بالملل، ولكن نسب الملل إليه مشاكلة لملل عباده، والمعنى أن الله لا يقطع ثوابه حتى تملوا مسألته وعبادته.

ومنها ابن الرقعمق (ت٣٩٩هـ) وقد كان له إخوان أربعة، وكان ينادمهم أيام الأستاذ كافور الإخشيدى، فجاء رسولهم إليه وقد كان اليوم باردا، ولم يكن له كسوة تحصنه من البرد، فقال الرسول له: إخوانك يقرئونك السلام ويقولون لك: قد اصطبحنا اليوم، وذبحنا شاة سمينة، فاشته علينا ما نطبخ لك منها، فكتب إليهم:

إِخوانُنَا قصدوا الصَّبوح بسُحرة ... فأَتَى رسولُهم إِلىّ خُصوصا
قالوا اقْتَرِحْ شيئًا نُجِدْ لك طبخَه ... قلتُ: اطبخوا لى جُبَّةً وقميصًا

فذهب الرسول بالرسالة وعاد ومعه أربع خلع، وأربع صرر فى كل صرة عشرة دنانير، فلبس إحدى الخلع وذهب إليهم.

فقد وضع الشاعر كلمة «اطبخوا لى» مكان «خيطوا لى» ليشاكل بها لفظ «الطبخ» السابق.

وقوله الآخر:

قَالوا: اتَّخِذْ دُهْنًا لقَلْبِك يُشْفِهِ   قلتُ: ادهنوهُ بخدِّها المتورِّدِ

فقد وضع «ادهنوه» مكان «متعوه» لمشاكلة «دهنًا» السابق.

* * *

ولا شك أن بلاغة المشاكلة تكمن فى جمال فى العبارة، وسمو فى البلاغة، فالناظر يتوهم أن المعنى الثانى هو عين الأول، فإذا أدام النظر، وحقق الفكر، علم أنه غيره، فيكون ذلك سببا لا ستقراره فى الذهن، ورسوخه فى الفهم، فيكون أدعى للثبوت وعدم التَّفلُّت.

* * *

تجاهل العارف

قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ ، أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ، وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ، وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه].

* * *

الله سبحانه وتعالى عليم بكل شىء، فهو يعرف أن الذى بيد موسى هى عصا، وإذا كان عارفا لما بيده، فلماذا السؤال؟

وجه الله تعالى السؤال لغرض بلاغى: وهو التنبيه والتأنيس ورفع الهيبة، فساق هذا الشيء المعلوم مساق غيره لنكتة وغرض.

وهذا اللون من البديع سمى: تجاهل العارف. ولورود هذا اللون فى القرآن الكريم سماه السكاكى(1)- تأدبا - سوق المعلوم مساق غيره، والحق ما صنع السكاكى، وإن لم يغير من جوهر المعنى المراد بتسميته «تجاهل العارف» شيئا من حيث الواقع.

وقد عرفوه: بأنه سوق المعلوم مساق غيره، لنكتة.

ومن الأسرار والنكات الباعثة على سوق المعلوم مساق غيره:

١- التحقير: كقوله تعالى فى حق النبى ﷺ حكاية عن الكفار:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾ [سبأ]، فهم يعنون بـ «رجل» محمدا ﷺ وكأنهم لم يكونوا يعرفون عنه شيئا سوى أنه رجلٌ ما، وهو عندهم أوضح من الشمس.

٢- التقرير: كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ، أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

---

(١) المفتاح (٢٠٢).

وقوله تعالى على لسان قوم إبراهيم: ﴿قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء]. وهذان الموضعان خرجا مخرج التقرير[1].

٣- التعريض: كقوله تعالى: ﴿قُلْ من يرزقكم من السموات والأرض قل الله، وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ].

فالله ورسوله أعلم مِمّن هو على الهدى، ولكنه ساق الكلام على هذا النحو للتعريض بعدم هداهم.

وهناك فائدة أخرى وهى أنه جىء بهذا الكلام على هذا الوجه من الإبهام ليكون سببا فى بعث المشركين على التدبر والتأمل فى حال أنفسهم وحال النبى والمؤمنين، حتى إذا أمعنوا النظر علموا أنهم على ضلالة، فيبعثهم ذلك على الاهتداء بالإسلام.

٤- التوبيخ: ومنه قول ليلى بنت طريف الشيبانى فى رثاء أخيها حينما قتله يزيد بن مزيد الشيبانى فى خلافة هارون الرشيد:

أَيا شجَرَ الخابُور مالك مُورقًا كأنَّك لمْ تَجزَعْ على ابنِ طريف

فليلى تعلم أن شجر هذا النهر لا يجزع، لأن الجزع لا يكون إلا من العقلاء، لكنها تجاهلت ذلك فأظهرت الشجر بمظهر العاقل وأن الواجب عليه الجزع فيذبل ولا يورق، فَلَمّا أورق اتَّجَهتْ إليه باللوم والتعنيف... وإذا كان الشجر يلام على عدم الجزع، فغيره من العقلاء أولى.

٥- المبالغة فى المدح: كقول البحترى يمدح الفتح بن خاقان:

أَلمعُ برْقٍ سرى أمْ ضوءُ مِصْباحِ أمْ ابتسامَتُها بالمنْظَرِ الضَّاحِى[2]؟

فالشاعر يعلم أن الذى ظهر إنما هو ابتسامتها، لكنه تجاهل، وتظاهر بأنه

---

(١) تحرير التحبير (١٣٦).

(٢) سرى: ظهر ليلا، المنظر: يراد به الوجه أو الفم، الضاحى: الظاهر.

التبس عليه الأمر فلم يدر، هل هذا اللمعان المشاهد من ثغرها عند ابتسامتها: لمع برق سرى، أم ضوء مصباح، أم ضوء ابتسامتها؟، وفى ذلك إظهار لمفاتنها مبالغة فى المدح.

ومثله قول الشاعر:

بَدَا فراع فُؤادى حُسْنُ صورتَهِ فقلتُ: هلْ مَلِكٌ ذا الشخصُ، أم مَلَكُ؟

٦- **المبالغة فى الذم**: كقول زهير بن أبى سلمى:

وما أدْرى وسوف إخالُ أدْرى أقومٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءُ؟(١)

فزهير يعلم أن آل حصن رجال، لكنه تجاهل وتظاهر بأن ذلك قد التبس عليه فلم يَدْرِ، أهم رجال أم نساء؟ وسيعلم ذلك فى المستقبل البعيد، فهو يعنى أنهم لضعفهم، وقلة جدواهم، قد التبسوا عليه بالنساء.

٧- **التدله فى الحب**: كقول الشاعر:

بالله يا ظَبيَاتِ القَاعِ قُلْنَ لَنَا لَيْلاىَ منكُنَّ أمْ لَيلَى من البَشَرِ؟(٢)

فالشاعر يعلم أن ليلى من البشر، لكنه تجاهل ذلك وتظاهر بأنه لا يدرى، وليؤكد ذلك التجاهل توجه بسؤاله إلى الظبيات، وهو يرمى من وراء ذلك إلى الترجمة عن ذهوله، ومدى سيطرة حبها عليه، حتى أفقدته صوابه، وحتى أصبح لا يدرى أهى إنسانة من بنات حواء، أم هى ظبى من الظباء؟

ويمكن أن يدخل فى هذا الباب كل صور الاستفهام غير الحقيقى، مثل قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ، قَالَ سُبْحَانَكَ، مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي، وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ، إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)** ﴾ [المائدة].

---

(١) قوم: المراد هنا رجال فقط بدليل قوله: أم نساء، وقد يطلق على ما يشمل الرجال والنساء.

(٢) القاع: المستوى من الأرض.

فقد أجاب عيسى - عليه السلام - بالنفى، والله يعلم ذلك. وفى هذا الأسلوب ما يظهر بوضوح تبرئة عيسى - عليه السلام - مما نسب إليه، وإقامة الحجة على من يعتقد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ، قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا، إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة].

فسؤال الله الرسل يوم القيامة عما أجيبوا به ممن أرسلوا إليهم - وهو أعلم بذلك منهم - مما يدل على أهوال ذلك اليوم لدرجة أنهم - وهم رسل - يذهلون عن أخص أعمالهم.

وقوله سبحانه: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ، أَسْتَكْبَرْتَ، أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص].

فسبب امتناع إبليس عن السجود لآدم معروف لله سبحانه، ولكن هذا الأسلوب تسجيل على إبليس بالمعصية، ليجيب بما أجاب به فيستحق الجزاء.

* * *

تأكيد المدح بما يشبه الذم

قال تعالى يحكى مقالة سحرة فرعون له لما آمنوا بموسى - عليه السلام - ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

* * *

سحرة فرعون يقولون: وما تعيب علينا يا فرعون إلا أسس المناقب، ودعائم المفاخر، وأصول النجاة، وهو الإيمان بآيات الله، إن كان الإيمان بالله عيبا، وكون الإيمان عيبا محال، فيكون ثبوت العيب منهم محالا، فنرى فى الآية صفة ذم منفية، استثنى منها صفة مدح، وهذا المستثنى معمول للفعل الذى فيه معنى الذم - على الاستثناء المفرغ -.

وهذا اللون البلاغى يسمى «تأكيد المدح بما يشبه الذم».

وهو نوعان:

الأول: أن يستثنى من صفة ذم منفية صفة مدح، بتقدير دخول صفة المدح المستثناة فى صفة الذم المنفية، كقول النابغة:

ولا عيْب فيهم غيرَ أَنَّ سُيوفَهم بِهِنَّ فُلولٌ من قِرَاعِ الكتائبِ(١)

فالعيب صفة ذم منفية، استثنى منها صفة مدح، وهى أن سيوفهم ذات فلول إن كانت عيبا، وكون الشجاعة عيبا محال، فيكون ثبوت العيب لهم محالا.

وفى هذا الأسلوب تأكيد للدعوى من وجهين:

١- أنه كدعوى أقيم عليها الدليل والبرهان، وكأنه استدل على نفى العيب عنهم بتعليق وجوده على وجود ما لا يكون، وما لا يتحقق بحال من الأحوال.

---

(١) فلول: جمع فل وهو الثلمة والكسر فى حد السيف. القراع: المقارعة بالسيوف، الكتائب: جمع كتيبة وهى الجيش أو القطعة منه.

٢- أن الأصل فى مطلق الاستثناء الاتصال، أى يكون المستثنى منه بحيث يدخل فيه المستثنى، فإذا تلفظ المتكلم بأداة الاستثناء دَارَ فى خلد السامع - قبل النطق بما بعدها - أن الآتى مستثنى من المدح السابق، وأنه يريد إثبات شىء من الذم، وهذا ذم، فإذا أتت بعدها صفة مدح تأكد المدح لكونه مدحا على مدح، ولكونه مشعرا بأنه لما لم يجد صفة ذم يستثنيها، اضطر إلى استثناء صفة المدح، وتحويل الاستثناء من الاتصال الذى كان مترقبا إلى الانقطاع الذى لم يكن مترقبا.

ومن هنا كان ذلك الأسلوب: «تأكيد المدح بما يشبه الذم» أبهى وأفخم أنواع المدح، «ولعل السر النفسى لذلك فيما يظهر: هو ما فى هذا الأسلوب من معنى المباغتة والمفاجأة التى تكسبه طرافة وتثير حوله تنبها»[1].

ومثله قول ابن نباتة:

ولا عيب فيها غيرَ سِحْرِ جُفُونها ... وأحْبِبْ بها سَحَّارةً حين تسحَرُ

وفى القمة من هذا قول الله تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا (٢٦)﴾ [الواقعة]، فما قبل «إلا» نفى لصفة اللغو والتأثيم، وما بعدها إثبات للسلام، وكلاهما مدح.

ومن هذا النوع من حيث الأفضلية والقوة صورة أخرى: وهى أن يؤتى بمستثنى فيه معنى المدح معمولا لفعل فيه معنى الذم - ويكون الاستثناء حينئذ مفرغا[2] كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩)﴾ [المائدة].

---

(١) مناهج تجديد.

(٢) سمى بذلك، لأن العامل الذى فيه معنى الذم والمتقدم على أداة الاستثناء قد تفرغ للعمل فيها بعد أداة الاستثناء وهو هنا المستثنى الذى فيه معنى المدح - وهذه الصورة من حيث كونها مستثنى مفرغا هى التى جعلتها مخالفة للصورة السابقة، وإن كانت من حيث الأفضلية والقوة مساوية لها.

إذ المعنى: ما تعيبون منا يا أهل الكتاب إلا أسس المناقب، ودعائم المفاخر، وأصول النجاة، وهو الإيمان بالله، وما أنزل من القرآن، وما أنزل من الكتب السابقة.

وكذلك الآية السابقة: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦]

الثاني: وهو أن يثبت لشيء صفة مدح، وتُعقَّب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى.

وذلك نحو قول الرسول ﷺ: «**أنا أفصحُ العرب بيد أنى من قريش**»، فالرسول ﷺ وصف نفسه بصفة من صفات الكمال وهى الأفصحية، فالإتيان بأداة الاستثناء بعدها مشعر بأنه أراد إثبات وصف بعدها مخالف لما قبلها، فلما أثبت أنه من قريش، وقريش أفصح العرب، كان ذلك تأكيدا للمدح بأسلوب أَلِفَ الناسُ سماعه فى الذم.

ومثله قول النابغة الجعدى:

فتًى كَمُلتْ أخلاقُه غيْرَ أنَّه ... جَوَادٌ فما يُبقِى من المالِ باقِيا

وهذا النوع أقل من الأول فى الجمال والحسن؛ لأنه أفاد التأكيد من جهة واحدة، وهى أن ذكر أداة الاستثناء قبل ذكر المستثنى يوهم إخراج شىء مما قبلها، فإذا ذكر بعد الأداة صفة مدح أخرى جاء التأكيد، ولا يفيد التأكيد من جهة أنه كدعوى الشىء بالبرهان والدليل، كما فى النوع الأول.

وذلك لأن مبنى الضرب الأول على اعتبار أن الأصل فى الاستثناء الاتصال، بخلاف هذا الضرب فإن مبناه على اعتبار أن الأصل فى الاستثناء الانقطاع، فتقدير الاتصال هنا غير ممكن، لعدم عموم الصفة الواقعة قبل الأداة، فلا يتصور شمولها لما بعدها، بخلاف الضرب الأول فإن تقدير دخول ما بعد الأداة فيما قبلها ممكن، لكونه من الصفات العامة، نحو «ولاعيب...».

والاستدراك بـ«لكن» يجرى مجرى الاستثناء فى «تأكيد المدح بما يشبه الذم»، وذلك كقول بديع الزمان الهمذانى يمدح:

هو البدْرُ إلا أَنَّهُ البحرُ زاخرا سِوَى أَنَّه الضِّرغامُ، لكنَّه الوَبْلُ[1]

فلفظ «لكن» تفيد ما أفادته «إلا»، و«سوى»؛ وذلك لأن أداة الاستثناء فى باب «تأكيد المدح بما يشبه الذم» بمعنى «لكن»؛ لأن الاستثناء منقطع.

فالاستثناءان الأولان والاستدراك بـ«لكن» من قبيل الضرب الثانى؛ لأنه أثبت أولا فى كل منها صفة مدح، ثم عقبها بأداة استثناء، تلتها صفة مدح أخرى، ويكون التأكيد من الوجه الثانى فقط.

تأكيد الذم بما يشبه المدح

وهو نوعان:

١- أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشىء صفة ذم، بتقدير دخول صفة الذم المستثناة فى صفة المدح المنفية. كقول الشاعر:

فإِنَّ منْ لامَنِى لا خيرَ فيه سوى وصْفِى له بأَخَسِّ النَّاسِ كُلِّهمُ

فالمعنى: أنه لا خير فيه سوى أنه أخس الناس، إن كانت تلك الصفة خيرا، وكون الأخسّية خيرا محال، فيكون ثبوت الخير محالا.

والتأكيد فيه من وجهين:

(١) أنه كدعوى الشىء بالبينة والبرهان، لتعلق ثبوت الخيرية له على المحال، وهو كون الأخسّية خيرا.

(ب) أن الأصل فيما بعد أداة الاستثناء مخالفته لما قبلها، ونفى صفة المدح ذم، فإذا أثبت صفة ذم بعد أداة الاستثناء جاء التأكيد على الوجه الثانى.

(١) الزاخر: المرتفع. الضرغام: الأسد، الوبل: المطر الغزير.

٢- أن يثبت للشيء صفة ذم، وتُعقّب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى، نحو: فلان متعطل إلا أنه منافق. والتأكيد فيه من وجه واحد - وهو الثاني فقط.

ومنه قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا، وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ، وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ، وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا، وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤].

فهؤلاء المنافقون الذين اقترفوا تلك الجرائم، ما أنكروا وما عابوا لعلة من العلل إلا لإغناء الله إياهم، فلقد كانوا حينما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة في غاية من ضنك العيش، لا يركبون الخيل، ولا يحوزون الغنيمة، فأثروا بالغنائم.

والإغناء من شأنه أن يكون صفة مدح، لكنه مع هؤلاء صفة ذم؛ لأنه اقترن بالنكران والجحود، ولا شك أن الإغناء مع النكران والجحود يدل على طبع ردىء وخسة، وهذا من صفات الذم، فلما استثنى ذلك من قوله: «وما نقموا» تأكد الذم على وجه أبلغ، إذ المقام يقتضي التنفير من صفات المنافقين وشدة التحذير من مكرهم.

* * *

اللف والنشر

قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣].

* * *

الآية السابقة واردة فى سياق تعدد النعم والمن على العباد بفضائله سبحانه، وقد ذكرت الليل والنهار - على جهة التفصيل والتوضيح بواو العطف - ثم أضافت إلى كلٍّ ما يليق به، فأضافت إلى الليل السكون؛ لأن فيه النوم والراحة، وإلى النهار ابتغاء الرزق والسعى فى الكسب.

فالآية ذكرت متعددا - على جهة التفصيل - ثم ذكرت ما لكل من آحاده من غير تعيين، اتكالا على أن السامع يَرُدُّ إلى كل ما يليق به، لوضوح الحال. وهذا اللون البديع يسمى «اللف والنشر».

وهو: ذكر متعدد، ثم ذكر ما لكل من آحاده من غير تعيين، اتكالا على أن السامع يَرُدُّ إلى كُلٍّ ما يليق به.

والمفصل هذا قد يكون مرتبا كالآية السابقة، ومثلها قول ابن الرومى:

آراؤُكُم ووجُوهُكُم وسُيُوفُكُم ... فى الحادثات إذا دَجَوْن نُجومُ
فيها معالمُ للهدَى ومصابحٌ ... تجلو الدُّجَى والأخرياتُ رُجومُ(١)

(١) دجون: أظلمن على الاستعارة، وضمير الواو للحادثات، المعالم: جمع معلم وهو ما يستدل على الطريق، وهذا يرجع إلى الآراء، المصابح: جمع مصباح، والدجى: جمع دجية وهى الظلمة، وهذا يرجع إلى الوجوه، الرجوم: الشهب، وهذا يرجع إلى السيوف.

وقد يكون غير مرتب، كقوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا، وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران].

فقد جمع أتباع الرسل فى دعائهم عند لقاء العدو بين أسباب الفوز فى الدنيا والآخرة. وقد ذكر تعالى دعاءهم على سبيل التفصيل، ثم ذكر الإجابة من غير تعيين، وقدم ثواب الدنيا مع تأخره فى الدعاء لما كان المقام مقام القتال والنفوس متطلعة إلى النصر، وخصص ثواب الآخرة دون ثواب الدنيا بالحسن؛ للإيذان بفضله ومزيته، وأنه المعتد به عند الله[1].

وكقول ابن حيوس:

كيف أَسْلُو وأَنت حِقْفٌ وغُصْنٌ ... وغَزَالٌ،لحظًا ، وقَدًّا،ورِدْفا[2]

ومثله قول الفرردق:

لقد خُنْتَ قومًا لو لجأتَ إليهمُ ... طريدَ دمٍ، أو حاملا ثِقْل مَغْرمِ
لأَلْفَيْتَ فيهم مُعطِيًا أو مُعطاعِنًا ... وراءك شَزْرا بالوشيج المقَوَّمِ[3]

والمتعدد قد يكون مجملا، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ...﴾ [البقرة: ١١١].

---

(١) تفسير أبى السعود (٢٨١).

(٢) الحقف: مجتمع الرمل إذا عظم واستدار، الردف: العجيزة،وهو يرجع إلى تشبيهها بالحقف، والقد،يرجع إلى تشبيهها بالغصن، واللحظ،يرجع إلى تشبيهها بالغزال، وهذا على غير ترتيب اللف.

(٣) الخطاب فى قوله: خنت، لهبيرة بن ضمضم وهو يهجوه لقتله القعقاع بن عوف. طريد دم: كناية عن كونه قاتلا، الثقل: الحمل الثقيل، المغرم: المصدر ميمى، والمراد: أنه يحمل مالا فوق طاقته فى صلح أو نحوه، شزرا: مصدر شزر بمعنى طعنة عن يمينه وشماله، والوشيج: شجر الرماح، المقوم: المثقف، معطيا: يرجع إلى كونه حاملا، مطاعنا: يرجع إلى كونه طريدا، على غير ترتيب اللف.

فالضمير فى «قـالوا» لأهل الكتاب من اليهود والنصارى كليـهما، والمعنى وقالت اليـهود: لن يدخل الجنة إلا مـن كان هودا، وقالت النصـارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصـارى، فَلَفَّ بين القولين - بقولـه: قالوا، والأصل: وقالت اليهود، وقـالت النصارى؛ ثقة بأن السـامع يرد إلى كل فريق قوله، لـما علم من التعادى بين الفريقين، وتضليل كل واحد منهما لصاحبه.

وعلى هذا فيكون التعريف الجامع:

ذكر متعدد - على جهة التفـصيل، أو الإجمال - ثم ذكر ما لكل من آحاده من غير تعيين.

* * *

صحة الأقسام[1]

يقول تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢].

***

بالتأمل فى الآية الكريمة نرى أنه ليس فى رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق، والطمع فى الأمطار، ولا ثالث لهذين القسمين، وقد استوفت الآية أقسام المعنى الذى هو آخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئا.

وهذا اللون من البديع يسمى: **صحة الأقسام**.

وعرفوه: بأنه: عبارة عن استيفاء المتكلم أقسام المعنى الذى هو آخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئا.

ومن لطيف ما وقع فى هذه الآية من البلاغة: تقديم الخوف على الطمع، إذ كانت الصواعق تقع من أول برقة، ولا يحصل المطر إلا بعد توافر البرقات، فإن تواترها لا يكاد يكذِّب، ولهذا كانت العرب تعد سبعينَ برقة وتنتجع، فلا تخطئُ الغيث والكلأ، وإلى هذا أشار المتنبى بقوله:

وقد أَرِدُ المياه بغير هادٍ ... سِوَى عدِّى لها بَرْق الغمام

فلما كان الأمر المخوفُ من البرق يقع من أول برقة، أتى ذكر الخوف فى الآية الكريمة مقدما أولا، ولما كان الأمر المطمع إنما يقع من البزق ناسخا للخوف، لمجىء الفرج بعد الشدة، والميسرة بعد الأمر المخوف، أتى ذكر الطمع فى الآية الكريمة ثانيا، وليكون الطمع بعد الحزن رحمة من الله - سبحانه - بخلقه، وبشرى بحسن العاقبة لعباده.

ومن صحة الأقسام قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران].

(١) انظر تحرير التحبير (١٧٣، ٥٨٥).

فلم يترك سبحانه قسما من أقسام الهيئات حتى أتى به.

وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ [يونس: ١٢]

وقد وقعت بين ترتيب الآيتين مغايرة أوجبتها البلاغة، فتضمن الكلام بها الائتلاف، وذلك أن الذكر يجب فيه تقديم القيام؛ لأن المراد به الصلاة - والله أعلم - والقيام واجب فيها للمستطيع، والقعود بعده عند العجز عن القيام، والاضطجاع عند العجز عن القعود.

والضر يجب فيه تقديم الاضطجاع، وإذا زال بعض الضر قعد المضطجع، وإذا زال كل الضر قام القاعد فدعا، لتتم الصحة، وتكتمل القوة، ويحصل التصرف.

فحصل حسن الترتيب، وائتلاف الألفاظ بمعانيها، وترجح مجيء «أو» على مجيء «الواو»، لما تدل عليه من تعدد المضطرين دون الواو.

ومثله قوله تعالى:

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ، إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا، وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ...﴾

[الشورى: ٤٩، ٥٠]

فالله تعالى إما أن يفرد العبد بهبة الإناث، أو بهبة الذكور، أو يجمعهما له، أو لا يهبه شيئا.

وقد وقعت صحة الأقسام فى هذه الآية على ترتيب البلاغة، وهى الانتقال من الأدنى إلى الأعلى، فقدم هبة الإناث، ثم هبة الذكور، ثم هبة الإناث والذكور، وجاءت كل أقسام العطية بلفظ الهبة، وأفرد معنى الحرمان بالتأخر؛ لأن إفضاله على عباده أهم من حرمانه إياهم، وتقديم الأهم أولى.

وقال فى معنى الحرمان: «ويجعل» عادلا عن لفظ الهبة، لتأتى الألفاظ ملائمة للمعانى، قياسا على قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٥].

فأتى معنى العطاء بلفظ «الزرع»، ومعنى الحرمان بلفظ «الجعل».

ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)﴾ [النور].

فاتفق فى هذه الآية صحة الأقسام؛ لأنه لم يبق بعد قوله: ﴿أفى قلوبهم مرض﴾، إلى قوله: ﴿أن يحيف الله عليهم ورسوله﴾، قسمًا من هذا المعنى حتى ذكره؛ لأن المرض عبارة عن إبطان الكفر، والريبة: الشك والتردد، وذكر الخوف من الحيف. تلك هى جميع الأقسام التى هى أسباب القعود عن الإجابة لحكم الله ورسوله.

وقد اجتمع فى هذه الآية فضلا عن صحة التقسيم:

١- نزاهة ألفاظ الهجاء من الفحش.

٢- وصف الله ورسوله بالعدل مدمجا فى الإيغال الذى وقع فى فاصلة الآية، فإن ملزوم قوله تعالى: ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾، وصفه ورسوله بالعدل.

وفى السنة من صحة الأقسام قول رسول الله ﷺ: «ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيت، أو لبستَ فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»، ولا رابع لهذه الأقسام.

وسمع عمر قول زهير بن أبى سلمى:

فإن الحقَّ مقطعُه ثلاث ... يمينٌ أو نفارٌ أو جلاء[1]

---

(١) النفار: بكسر النون أن يرفعوا أمرهم إلى حاكم يحكم بينهم. والجلاء - بالكسر كشف الأمر بالبينة.

فجعل يردد البيت من التعجب.

وأنشدوه قصيدة عبدة بن الطبيب، فلما بلغ المنشد إلى قول الشاعر:

والمرء ساعٍ لأمرٍ ليس يُدركُه ... والعَيشُ شُحٌ وإِشفاق وتأميل

قال عمر متعجبا: «والعيش شح وإشفاق وتأميل»، يُعَجِّبُهم من حسن ما قسّم وفصّل.

ومن صحة الأقسام: ذكر متعدد ثم إضافة ما لكل على التعيين، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقة].

ومنه قول الشاعر:

ولا يُقِيمُ على ضَيمٍ يُرادُ بِهِ ... إلا الأذَلّان: عَيْرُ الحَيِّ والوتدُ

هذا على الخَسْف مَرْبُوطٌ برُمَّته ... وذَا يُشَجُّ فلا يَرْثِى له أَحدُ

فقد أضاف إلى «عير الحى» وهو الحمار الوحشى أو الأهلى - الربط على الخسف والذل، وإلى الوتد الشج.

ومن صحة الأقسام: ذكر أحوال الشىء مضافا إلى كل حال منها ما يليق بها، كقول الشاعر:

بدتْ قمرا، ومالتْ خُوطَ بَان ... وفاحتْ عنبرًا، ورنتْ غَزالا

وقول على - رضى الله عنه -: أحسن إلى من شئتَ تكن أميره، واستغن عمن شئتَ تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره.

* * *

فإذا لم يوف المتكلم الأقسام، أو دخل بعضها فى بعض، أو كرر بعضها كان التقسيم رديئا. فمن الأول قول جرير يهجو بنى حنيفة:

صارتْ حَنِيفةُ أثلاثًا، فثلثهم من العبيد، وثلثٌ من مواليها

فإن جريرا لم يذكر القسم الثالث.

ويحكى أن رجلا من بنى حنيفة سُئِل من أى قسم أنت؟.

قال: من القسم الملغى ذكره.

ومن الثانى قول بعضهم يصف قوما بعد معركة: فمن بين جريح مضرَّجٍ بدمائه، وهاربٍ يلتفت إلى ورائه.

فهذا التقسيم فاسد؛ لأن الجريح قد يكون هاربا، والهارب قد يكون جريحا، ولو قال: (فمن بين قتيل مضرج بدمائه) لصح التقسيم.

ومنه قول جميل بن معمر يخاطب بثينة صاحبته:

لو كان فى قلبى كقَدْرِ قُلامَةٍ حُبٌّ وصلتُكِ، أو أتَتْكِ رسَائلِى

فإتيان الرسائل داخل فى الوصل، ولو قال بدلا من «وصلتك» «لزرتك» لصح المعنى مع استقامة وزن البيت.

ومن الثالث قول الأشجعى:

فما برحتْ تُومى إلىّ بطرْفها وتومضُ أحيانا إذا خَصْمها غَفَل

لأن «تومى بطرفها» و«تومض» بمعنى واحد.

* * *

الجمع

قد يجمع المتكلم بين أمرين مختلفين أو أكثر فى حكم واحد، كقوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، فقد جمع بين المال والبنين فى كونهما زينة الحياة الدنيا، فهذا يسمى «الجمع».

ومثله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ، وَالْمَيْسِرُ، وَالأَنصَابُ، وَالأَزْلامُ، رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)﴾ [المائدة]، فقد جمعت هذه الرذائل التى تفسد العقل، وتصد عن ذكر الله، وحكم عليها بأنها رجس من عمل الشيطان.

ومن الجمع قول الشاعر:

إِن الشباب والفراغَ والجِدَهْ ... مفسدةٌ للمرءِ أىُّ مَفسدهْ

فقد جمع الثلاثة فى كونها مفسدة ومضرة:

ومثله قول الآخر:

آراؤه وعطاياهُ ونعمتُه ... وعفوه رحمة للناس كلِّهِمُ

التفريق

وقد يقصد المتكلم إلى نوعين مندرجين تحت جنس واحد فيوقع بينهما تباينا، كقول الشاعر:

منْ قَاس جدْواك بالغمام فَما ... أنصَفَ فى الحكم بين شَكْلَيْنِ

أنْتَ إذا جُدْتَ ضاحكٌ أبدًا ... وهو إِذَا جَادَ دامعُ العَيْنِ[1]

فهذا اللون مما يسمى «التفريق»، ومثله قول الآخر:

---

(١) الجدوى: العطية - الشكلان: تثنية شكل وهو المثل، وقد فرق بين الجدوين.

مـا نـوالُ الـغـمـامِ وقْتَ ربيعٍ كنوال الأميرِ يومَ سَخَاءِ
فنوالُ الأميرِ بَدْرَةُ عَيْنٍ ونوالُ الغَمامِ قطرةُ ماءِ[1]

الجمع مع التفريق

وقد يجمع المتكلم بين شيئين فى معنى ويفرق بين جهتى الجمع، كقوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾
[الإسراء: ١٢]

فهذا يسمى «الجمع مع التفريق»، ومنه قول الشاعر:

فوجْهُكَ كالنَّارِ فى ضوْئها وقَلْبىَ كالنار فى حَرِّهَا

فقد شبه وجه الحبيب وقلبه هو بالنار، ثم فرق بين وجهى المشابهة بأن جعله فى الوجه الضوء واللمعان، وفى القلب الحرارة والاحتراق.

ومنه قول البحترى:

ولَمَّا التقينا والنَّقَا موعدٌ لنا تعجَّبَ رَائِى الدُّرِّ منا ولاقطُهْ
فمن لؤلؤٍ تَجْلوه عند ابتِسَامِها ومن لؤلؤٍ عند الحديثِ تَساقُطُهْ

الجمع مع التقسيم

وقد يجمع المتكلم أمورا متعددة تحت حكم واحد ثم يقسمها، كقول الشاعر أبى الطيب يمدح سيف الدولة حين غزا «خرشنة» ببلاد الروم:

---

(١) البدرة: كيس به ألف دينار أو عشرة آلاف درهم، المراد من العين: المال، وقد فرق بين النوالين.

حتى أَقَام علـى أَرْبَاضِ خَرْشَنـةٍ تشْـقَـى به الرُّومْ والـصُّلْـبانُ والـبِـيَعُ
للسَّبْـيِ ما نكَحُوا، والقـتـلِ ما وَلَدُوا والنهبِ ما جَمَعُوا، والنارِ مازرَعُوا(١)

فقد جمع فى البيت الأول شقاء الروم المقيمين بنواحى تلك البلدة، وذلك بما يلحقهم من الشدائد على سبيل الإجمال، حيث قال: «تشقى به الروم»، ثم قسم فى البيت الثانى، فأضاف كلا إلى ما يناسبه.

وقد يقسم المتكلم أولا ثم يجمع كقول حسان بن ثابت - رضى الله عنه -:

قـومٌ إذا حـاربُـوا ضَـرُّوا عـدوَّهُـم أَوْ حاولوا النَّفْع فى أَشْيـاعِهم نفَـعُوا
سِجيَّـةٌ تـلك فـيهـم غَيْـرُ مُـحْـدثةٍ إن الخَـلائِـقَ فـاعلـم شـرُّها الـبِـدَعُ

فقد قسم فى البيت الأول صفة الممدوحين إلى الضر بالأعداء، والنفع للأولياء، ثم جمع فى الثانى بأن كلا منهما سجية لهم لا بدعة محدثة فيهم.

فالجمع مع التقسيم: جمع متعدد تحت حكم واحد، ثم تقسيمه، أو بالعكس.

الجمع مع التفريق والتقسيم

وهذا اللون مجتمع فى قول تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود].

(١) أرباض: جمع ربض وهو ما حول المدينة. البيع: جمع بيعة وهى معبد النصارى.

فقد جمع النفوس فى قوله جل شأنه: ﴿لا تَكلمَ نفس﴾، ثم فرق بكون البعض شقيا والبعض سعيدا، بقوله: ﴿فمنهم شقى وسعيد﴾، ثم قسم بإضافة عذاب النار إلى الأشقياء، ونعيم الجنة إلى السعداء.

ومثله قول الشاعر:

وكالنَّار ضوءًا وكالنَّار حَرًّا مُحَيًّا حبيبى، وحُرْقَةُ بَالى

فذلك من ضوئه فى اختيالٍ وهذا لحرقته فى اختلالِ

فجمع محيا حبيبه وحرقة باله فى كونهما كالنار، ثم فرق بين وجهى المشابهة، ثم قسمه إلى اختيال واختلال.

* * *

الاستقصاء

قال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ، تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ، وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ، وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ، فَاحْتَرَقَتْ﴾[1] [البقرة: ٢٦٦].

* * *

فى هذه الآية ترى أن المعنى قد استقصى حتى لم يبق فيه بقية لأحد؛ وذلك أنه بعد قوله: ﴿جنة من نخيل وأعناب﴾، قال: ﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾، وكَمَّل الوصف بقوله: ﴿له فيها من كل الثمرات﴾، فأتى بكل ما فى الجنان ليشتد الأسف على إفسادها، ثم قال: ﴿وأصابه الكبر﴾، ثم استقصى المعنى الذى يوجب تعظيم المصاب، بقوله بعد وصفه بالكبر: ﴿وله ذرية﴾، ولم يقتصر على كونه له ذرية حتى قال: ﴿ضعفاء﴾، ثم ذكر استئصالها بالهلاك فى أسرع وقت

---

(١) روى ابن جرير فى تفسير هذه الآية: أن عمر - رضى الله عنه - سأل الناس عن هذه الآية فما وجد أحدا يشفيه، حتى قال ابن عباس - وهو خلفه - يا أمير المؤمنين إنى أجد فى نفسى منها شيئا، فَتَلَفَّتَ إليه، فقال؟ تَحَوَّلْ ها هنا،لم تحقِّر نفسك؟

قال: هذا مثل ضربه الله - عز وجل - فقال: أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخير حين فنى عمره واقترب أجله، ختم ذلك بعمل من أعمال أهل الشقاء فأفسده كله فحرقه أحوج ما كان إليه.

وهذا التفسير من باب الاستعارة التمثيلية، وقد ألمح ابن عباس إليه بقول: هذا مثل. (خطوات التفسير البيانى - رجب البيومى (١٩، ٢٠) تفسير القرطبى (جـ١٣ ٢١٨، ٢١٩ - ابن كثير (ص١١/ ٣١٩).

حيث قال: ﴿فأصابها إعصار فيه نار﴾، فلو اقتصر على ذكر الإعصار لكان كافيا، لكن لما علم الله سبحانه أن مجرد الإعصار لا تحصل به سرعة الهلاك، كما يحصل إذا كان فيه نار، فقال سبحانه: ﴿فيه نار﴾، ثم أخبر باحتراقها؛ لاحتمال أن تكون النار ضعيفة لا يقوم إحراقها بإطفاء أنهارها، وتجفيف كل أوراقها وثمارها، فأخبر بإحراقها احتراسا من ذلك.

وهذا أحسن استقصاء وأتمه، بحيث لم يبق فى المعنى موضع استدراك.

والفرق بين الاستقصاء، والتتميم، والتكميل، كون التتميم؛يرد على معنى ناقص فيتمم بعضه، والتكميل؛يرد على التام فيكمل وصفه، والاستقصاء؛له مرتبة ثالثة، فإنه يرد على الكامل فيستوعب على كل ما تقع عليه الخواطر من لوازمه.

ومنه قول ابن الرومى:

وحديثُها السِّحرُ الحلالُ لَوانهُ ... لم يجْن قَتَل المُسْلمَ المتَحرِّزِ
إنْ طَال لم يُمْلَلْ، وإنْ هى أوْجَزَتْ ... وَدَّ المحدِّثُ أنَّها لمْ تُوجِزِ
شَركُ العقولِ، ونُزْهَةٌ ما مثلُها ... للمطمئِنِّ، وعُقْلةُ المستوفِزِ

فالشاعر وصف حديث هذه المحبوبة بنهاية الوصف الحسن اللائق بمثله، حيث قال: «**وحديثها السحر الحلال**» لفعله فى العقول فعل السحر، وجعله حلالا لصدق الوصف، وليُضمِّن كلامه فى صفته معنى قول الرسول ﷺ: «**إن من البيان لسحرا**»، فإن سحر البيان سحر حلال، ثم رجع فاستدرك، فقال:

... ... لوانه ... لم يجن قتل المسلم المتحرز

ولكون قتل المسلم بغير حق حرام، حصل فى البيت طباق معنوى، فكأنه قال: سحر حلال لو لم يجن حراما، فطابق بين الحلال والحرام.

وأحدث براءة المسلم المقتول بالحديث بالإيغال فى قافية البيت، وهو قوله: «المتحرز»؛ لأن المتحرز لا يقع فى شىء من موجبات القتل، وفى ذلك مبالغة فى وصف الحديث بإفراط الالتذاذ الذى يزهق حبه النفس.

ثم فكر فيما يعرض من الملل بسبب طول الحديث، فاحترس عن تلك بقوله: «**إن طال لم يُملل**».

ثم رأى أنه متى اقتصر على وصفه بالحسن حالة الإطالة دون الإيجاز كان مقصرا، فقال: «**وإن هى أوجزتْ**» إلى آخر البيت:

ثم أراد وصفه بميل النفوس إليه إما اضطرارا أو اختيارا، فقال فى الميل الاضطرارى: «**شرك العقول**»، فأخبر أنه يصيد العقول قنصا، ثم قال فى الميل الاختيارى مقسما له قسمين حاصرين فى حالتى الريث والعجل:

... ... ونزهة ما مثلها ... للمطمئن، وعقلة المستوفز

وليس للمختار حالة زائدة على هاتين الحالتين، إما أن يكون مطمئنا، أو مستوفزا، فإن كان مطمئنا كان هذا الحديث نزهته، وإن كان مستوفزا كان عقلته، فلم يبق فى هذا المعنى مقالا لمن بعده.

ومثله قول البحترى فى صفة إنضاء الإبل وهزالها:

كالقِسىِّ المعطَّفَاتِ، بلِ الأَسْـ ... ـهم مبرية، بلِ الأَوْتارِ[1]

فقد جمع مع الاستقصاء، المبالغة، والترتيب، والتتميم، فى موضعين فى قوله: «**المعطفات**»، وقوله: «**مبرية**» ، والإيغال، فى القافية.

* * *

(١) القسى: جمع قوس، المبرية: المنحوتة. الأوتار: جمع وتر وهو الخيط الجامع بين طرفى القوس، والإضراب فى البيت للترقى لأن السهام أرق من القسى، والأوتار أرق من السهام.

التوجيه

قال تعالى مبينا حال اليهود وموقفهم من الدعوة والداعى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ، وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ، وَرَاعِنَا، لَيًّا[1] بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ...﴾ [النساء: ٤٦].

* * *

قال الزمخشرى[2]: «غير مُسمع» حال من المخاطب، أى اسمع وأنت غير مُسْمَعٍ وهو قول ذو وجهين: يحتمل الذم: أى اسمع مدعوا عليك - بلا سمعتَ - لأنه لو أجيبتْ دعوتهم عليه لم يسمع، فكان أصم غير مُسمَع، قالوا ذلك اتكالا على أن قولهم: «لا سمعت» دعوة مستجابة.

أو اسمع غير مُجاب ما تدعو إليه، ومعناه غير مُسمَع جوابا يوافقك، فكأنك لم تسمع شيئا.

أو اسمع غير مُسمَع كلاما ترضاه، فسمعك عنه نَابٍ، ويجوز على هذا أن يكون «غير مسمع» مفعول «اسمع»، أى اسمع كلاما غير مسمع إياك؛ لأن أذنك لا تعيه نبوًّا عنه.

ويحتمل المدح: أى اسمع غير مُسْمَعٍ مكروها، من قولك: أسمع فلان - فلانا - إذا سبّه.

وكذلك قوله: «راعنا» يحتمل وجهين:

يحتمل راعنا نكلمك، أى ارقبنا وانتظرنا.

ويحتمل شبه كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابُّون بها، وهى - راعينا -

---

(١) ليا بألسنتهم: أى فتلا بها وتحريفا فيفتلون بألسنتهم ما يضمرونه من الشتم إلى ما يظهرونه من التوقير نفاقا، أو يلوون لسانهم بـ «راعينا» حتى تشبه «راعنا» العربية.

(٢) الكشاف (جـ١/ ٤٠٠).

فكانوا - سخرية بالدين واستهزاء برسول الله ﷺ - يكلمونه بكلام محتمل، ينوون به الشتيمة والإهانة، ويظهرون به التوقير والاحترام.

فـ «غَيْرَ مسمع» و«رَاعِنَا» تحتمل الذم والمدح، وقد سمى البلاغيون الكلام إذا كان محتملا للوجهين «التوجيه».

فالتوجيه: هو إيراد الكلام محتملا لوجهين متضادين: الذم والمدح.

ومن التوجيه: ما حكى أن بعض الشعراء هنأ الحسن بن سهل بصهْر المأمون مع من هنأه، فأثاب الناسَ كلَّهم وحَرَمَه، فكتب إليه: إن أنت تماديتَ على حرماني عمِلتُ فيك بيتا لا يَعلَمُ أحد أمدَحتُك فيه أم هجوتُك؟

فاستحضره وسأله عن قوله، فاعترف، فقال: لا أعطيك أو تفعل، فقال:

بارك الله للحسَنِ ... ولبُورَانَ فى الختَنْ[1]

يا إِمام الهُدَى ظَفِرْ ... تَ بِبِنْتِ مَنْ؟

فلم يعلم أراد بقوله: «ببنت من»؟ فى الرفعة أو فى الضعة.

فاستحسن الحسن منه ذلك، وناشده، أسمعت هذا المعنى أم ابتكرته؟. فقال: لا والله، إلا نقلته من شعر شاعر مطبوع، فَصّل قَباء عند خياط أعور اسمه زيد، فقال له الخياط على طريق العبث به: سآتيك به لا يُدرى أقَباءُ هو أم دُوَّاج فقال الشاعر: لئن فعلت لأعملن فيك بيتا لا يعلَمُ أحدٌ ممن سمعه أدعوت لك فيه أم دعوت عليك؟ ففعل الخياط، فقال الشاعر (بشار):

جاء من زيد قَباءُ ... ليت عينَيْه سواء[2]

فما علم أحد هل أراد: أن الصحيحة تساوى السقيمة، أم العكس.

(١) الختن: كل من كان من قبل المرأة مثل الاب أو الأخ.

(٢) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب. دواج كرمان، لِحَافٌ يلبس.

فاستحسن الحسن صِدْقَه أضعافَ استحسانِه حِذْقه، وأضعف جائزته.

ومن إبهام العرب قول رجل من بنى عبد شمس:

تَضيَّفَنِى وَهْنا فقلت أسابِقِى ... إلى الزاد شَلَّتْ من يدَىَّ الأصابعُ[1]

ولم تلق للسَّعْدِىِّ ضيفا بقَفْرَةٍ ... من الأرضِ إلا وهو صديانُ جائعُ

فظاهر الشعر مبهم معناه، فيظن سامعه أنه أراد ضيفا من البشر، فيكون قد هجا نفسه به، وإنما هو يصف ذئبا غشى رحله فى الليل، وهو بالقفر، وهو فخر محض.

ومن قول حسان بن ثابت - رضى الله عنه - يرد على من هجا النبى - عليه الصلاة والسلام:

هَجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاءُ

أتهجوه ولستَ له بكُفْءٍ؟ ... فشرُّكما لخيركما الفداءُ

ومنه ما يحكى أن أعجميا سأل ابن الجوزى بقوله: أى الرجلين أفضل، أبو بكر أم على؟ فقال ابن الجوزى: من كانت ابنته تحته، فالضمير الأول إن عاد على «مَنْ»، فهو تفضيل لأبى بكر وابنته عائشة - رضى الله عنها، والضمير الثانى يرجع إلى النبى ﷺ، وإن عاد الضمير الثانى على «مَنْ» والأول على النبى - عليه الصلاة والسلام - وابنته فاطمة، فهو تفضيل لعلى[3].

ومن التوجيه البديع ما رواه ابن رشيق أن النجاشى الحارثى، هجا «بنى

(١) الوهن: القطعة من الليل.

(٢) تحرير التحبير (٥٩٧، ٥٩٨).

(٣) زهر الربيع (١٤٩).

العجلان» فاستعدوا عليه عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فسألهم: ما قال فيكم؟ فأنشدوه؟ قوله:

إِذا الله عادَى أَهَل لُؤمٍ ورِقَّةٍ فعادَى بنى العجلان رهط ابن مقبل

فقال له عمر: إنما دعا فإن كان مظلوما استجيب له، وإن كان ظالما لم يستجب له. قالوا: وقال أيضا:

قبيلةٌ لا يَغْدرون بذِمَّةٍ ولا يَظْلمون الناس حَبَّةَ خرْدَلِ

فقال عمر: ليت آل الخطاب هكذا، قالوا: وقد قال أيضا:

ولا يرِدون الماء إلا عَشِيَّةً إِذا صَدَرَ الورّادُ عن كل مَنْهَلِ

فقال عمر: ذلك أقل للكاك، قالوا: وقد قال أيضا:

تعاف الكلابُ الضاريات ُلحومَهم وتأكل من كَلْبٍ وعوْفٍ ونهشَلِ

فقال عمر: أجن القوم! موتاهم، فلم يضيعوهم، قالوا: وقد قال:

وما سُمى العَجْلانُ إلا لقولهم خُذِ القَعْبَ واحْلُبْ أيها العبْدُ واعْجَلِ

فقال عمر: خير القوم خادمهم، وكلنا عبيد الله(١).

وكانوا يفخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه فى تعجّيل القرى إلى أن هجاهم النجاشى به، فضجروا منه، وسبُّوا به.

فالشاعر حاول بمهارته البيانية ألا يجعل هجوه سافرا صريحا، فستره وراء عباراته، وحجبه خلف كناياته، وعمر يريد ألا يطيل أمد الخصومة، ويوسع شُقَّة الخلاف بين المتنازعين لئلا يتمادى الشاكون فى خصومتهم، ويتشددوا فى طلب العقوبة، فحاول أن يحمل الكلام على حقيقته، ويجعله على أحسن وجوهه فى سبيل قبر الفتنة فى مهدها، وحمل الشعر على أحسن جهاته.

---

(١) العمدة (جـ١/ ٢٧)، البيان فى ضوء أساليب القرآن للمؤلف (ص٢٦٧، ٢٦٨).

لكن القوم أصروا على فهم الشعر على الوجه الذى يصرح بالشر، فلم يشأ أن ينفرد بالحكم فبعث إلى حسان بن ثابت - رضى الله عنه - وكان محبوسا عنده فسأله، فقال حسان: لم يهجه، لكن سَلَح عليه.

فهدد عمر النجاشى، وقال له: إن عُدْتَ قطعتُ لسانكَ.

وكان ابنُ جِنِّى أعور ويقول المترجمون: إنه كان مُمَتَّعًا بإحدى عينيه فى الكناية عن عَوَرِه، وكأن هذه الكناية من باب التوجيه البديعى فإن إحدى العينين المُمَتَّع بها الأعْوَر يجوز أن تكون المُبصِرة يتمتَّع بالإبصار بهَا والاهتداء بنورها، ويجوز أن تكون الذاهبة، فالأعور ممتع بثواب الصبر عليها والأجر على فقدها.

* * *

التورية

قال تعالى متحدثا عن قدرته وسمو عظمته: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات].

***

فـ «اليد» فى الآية لها معنيان: أحدهما وهو المعنى القريب - الجارحة - وهذا المعنى هو المتبادر إلى الذهن، لا سيما وقد مهدت الآية لهذا بكلمة «بنيناها»؛ لأن البناء مما يلائم اليد الجارحة، أما المعنى الثانى - وهو المعنى البعيد الذى يدرك بعد التأمل - هو القدرة - وهو المراد، فاليد لها معنيان: أحدهما قريب - وهو غير مراد، والآخر بعيد - وهو المراد، وقد وُرِّىَ عن المعنى البعيد بما يناسب المعنى القريب.

وهذا اللون من المحسنات يسمى «التورية»، حيث يُورَّى عن المعنى البعيد الخفى بمعنى ظاهر قريب، وقد عرفوها بأنها:

أن يذكر المتكلم لفظا مفردا له معنيان أحدهما: قريب - لكنه غير مقصود، والثانى بعيد يحتاج إلى إعمال الذهن - ولكنه هو المقصود.

والتورية قسمان:

مرشحة: وهى التى قرنت بما يلائم المعنى القريب، كالآية السابقة، ومثلها قول الشاعر:

حَملناهُمُ طُرًّا على الدُّهْمِ بعدَما ... خلعْنَا عليهم بالطِّعان ملابسَا[1]

---

(١) المعنى: أنهم أسروا أعداءهم وقيدوهم بالحديد بعد أن أثخنوهم بالجراح.

فكلمة «الدُّهْم» لها معنيان: أحدهما المعنى القريب - وهو الخيول السود، وهو المتبادر إلى الذهن- وهو غير مراد - والمعنى البعيد، هو القيود السود - وهو المراد - وقد رشحت التورية بما يلائم المعنى القريب، إذ أتى الشاعر بكلمة «حملناهم»، والحمل مناسب للدهم للخيول وهو المعنى القريب.

مجردة: وهى التى لم يذكر فيها ما يلائم المعنى القريب، مثل قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴿٥﴾﴾ [طه]، فالاستواء له معنيان: أحدهما الاستقرار فى المكان، وهو المعنى القريب - وغير المقصود - لأن الله تعالى منزه عن ذلك، والثانى: الاستيلاء والملك - وهو المعنى البعيد المقصود المورى عنه بالمعنى القريب - ولم يذكر فيها ما يلائم المعنى القريب.

ومثلها قول أبى بكر - رضى الله عنه - وقد سئل عن النبى ﷺ حين الهجرة، فقيل له: مَنْ هذا؟، فقال: «هاد يهدينى» أراد أبو بكر هاديا يهدينى إلى الإسلام، لكنه ورّى عنه بهادى الطريق، وهو الدليل فى السفر(١).

ولأن الأشياء التى نريد العبارة عنها غير متناهية والألفاظ متناهية لكونها مؤلفة من الحروف المتناهية؛ كانت التورية ثمرة من ثمار اللفظ المشترك، ونتيجة من نتائج شيوعه فى اللغة.

ولتشريك المعانى فى اللفظ الواحد أغراض، منها: التورية بالشىء عن غيره لدفع المحذور مع الصدق، كما رُوى عن أبى بكر - رضى الله عنه - يوم خرج مع النبى ﷺ مهاجرين إلى المدينة، سأله رجل، من هذا الذى معك؟، فقال له: هذا رجل يهدينى سواء السبيل.

فالهداية مشتركة بين تعريف ما ينبغى وما لا ينبغى من الأعمال، وبين الدلالة على الطريق الموصل إلى الجهة المقصودة، فأوهم أنه يريد هداية الطريق،

---

(١) خزانة الأدب للحموى (٢٩٦).

وهو يريد هداية الدين، والمعنى القريب: هو الإرشاد إلى الطريق، لكن المراد المعنى البعيد وهو الإيمان.

وروى أن النبى ﷺ لما خرج يريد غزو المشركين فى غزوة بدر، وانتهى إلى نصف الطريق بين مكة والمدينة وجد رجلا أعرابيا، فسأله، ما عِلْمُك بقريش ومحمد؟. فقال له الأعرابى: مِمّ أنت؟. فقال له النبى ﷺ حتى تخبرنى، فقال الأعرابى: بلغنى أن قريشا خرجوا يوم كذا، ومحمد خرج يوم كذا، فإن كان هذا صدقا فمحمد بموضع كذا، وقريش بموضع كذا، ثم استنجز الأعرابى الوعد، فقال النبى ﷺ أنا من ماء، ومضى.

فأوهم ﷺ أنه من العراق؛ لأن من أسماء العراق «ماء»، وهو يريد أنه ﴿مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧﴾ [الطارق][1].

ومن التورية قول عمر بن أبى ربيعة:

أيها المُنْكِحُ الثريَّا سُهيْلا ... عَمْرك الله كيف يلتقيان؟
هى شاميَّةٌ إذا ما استقلَّت ... وسهيل إذا ما استقل يمانى[2]

ففى «الثريا وسهيل» تورية لطيفة، فإن «الثريا» يحتمل المرأة المذكورة وهو المعنى البعيد المورَّى عنه - وهو المراد - ويحتمل «ثريا السماء» وهو المعنى

---

(١) الوسيلة الأدبية إلى اللغة العربية، أو يكون ورى عن قبيلة يقال لها: «ماء»، خزانة الأدب للحموى (٢٩٦).

(٢) المنكح: اسم فاعل، استقل: ارتفع، عمرك الله: قسم، والاستفهام تعجبى، الثريا: اسم امرأة وسهيل: اسم رجل، وكان بينهما بون بعيد فى الخلق فكانت الثريا مشهورة بالحسن والجمال وكان سهيلا قبيح المنظر، والكناية هنا مجردة فوصف «الشامية واليمان» يصح أن يكون للمرأة والرجل، ويصح أن يكون للثريا والسهيل، وإذا لاحظنا لفظ «المنكح» وأنه يكون للرجل والمرأة فتكون ترشيحا.

القريب المورى به - وسهيل يحتمل الرجل المذكور - وهو المعنى البعيد المورى عنه - وهو المراد، ويحتمل «النجم» المعروف بسهيل.

الفرق بين التورية والتوجيه:

لكل من التورية والتوجيه معنيان، لكن يفرق بينهما بالآتى:

١- المقصود فى التورية أحد المعنيين - وهو البعيد، أما فى التوجيه فالمعنيان سواء.

٢- التورية تكون فى الألفاظ المفردة، بينما التوجيه يكون فى التركيب كله.

٣- التورية لها معنيان فى اللغة وفى أصل الوضع، بينما التوجيه يدل على معنييه بمعونة السياق.

* * *

الاستخدام

قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ، فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

* * *

فالمراد من الشهر «الهلال» والمراد من الضمير فى «فليصمه» الزمان المعلوم، نجد أن اللفظ وهو «الشهر» ذكر وأريد به معنى، ثم أعيد عليه الضمير بمعنى آخر.

هذا الاستعمال يسمى الاستخدام: وهو ذكر اللفظ بمعنى وإعادة ضمير، أو إشارة عليه بمعنى آخر، أو إعادة ضميرين عليه نريد بثانيهما غير ما نريد بأولهما.

فالاستخدام يطلق على عدة صور:

الأولى، كالآية الكريمة، ومثلها قول الشاعر:

إِذا نَزل السماءُ بأرض قومٍ   رعيناهُ وإنْ كانوا غِضَابَا

يصف الشاعر قومه بالرياسة، وسعة السلطان، فأينما نزل المطر - ولو بأرض غيرهم - فهم يرعون الكلأ الناتج عن المطر على رغمهم ومن غير رضاهم.

فالمراد من «السماء» المطر، مجازا مرسلا - علاقته المجاورة، والقرينة «نزل» ثم أعاد الضمير فى «رعيناه» على لفظ «السماء» مرادا منه معنى آخر هو «النبات» مجازا مرسلا علاقته المسببية، والقرينة: رعيناه، فقد أريد بلفظ «السماء» معنى، ثم أريد بضميره معنى آخر، وهذه هى الصورة الأولى للاستخدام.

الثانية: أن يكون بدل الضمير اسم الإشارة، كقول الشاعر:

رأى العَقيقَ فأجْرَى ذاكَ ناظرُهُ ... متيَّمٌ لجَّ فى الأشواق خاطرُهُ

فالمراد بالعقيق: المكان، لأنه اسم مكان بظاهر المدينة ببلاد الحجاز، ثم أعاد اسم الإشارة عليه بمعنى: الدم الأحمر الشبيه بالعقيق على الاستعارة.

ومثله قول الآخر(١):

تالله ما ذُكِر العقيقُ وأهلُه ... إلا وأجْراه الغرامُ بمحْجَرى

فالمراد بالعقيق المكان المذكور، والضمير فى «أجراه» يعود عليه بمعنى: الدم الأحمر الشبيه بالعقيق.

الثالثة: كقول البحترى:

فسقَى الغَضَى والسَّاكِنيه وإنْ هُم ... شَبُّوهُ بين جوانحٍ وقُلوبِ(٢)

يدعو الله أن يسقى الغضى وساكنيه وإن عذبوه وأوقدوا النار فى قلبه، فقد أطلق «الغضى» بمعنى: الشجر، ثم أعاد عليه الضمير فى «الساكنيه» بمعنى: المكان، إذ هو واد بنجد، ثم أعاد عليه الضمير فى «شبوه» بمعنى النار.

ومما سبق يتضح الفرق بين التورية والاستخدام، فالتورية: يراد فيها أحد المعنيين ويلغى الآخر، أما فى الاستخدام فيراد المعنيان معا.

* * *

---

(١) هذا من النوع الأول.

(٢) الغضى: نوع من الشجر جمره لا يطفأ بسرعة، واحدته غضاة، شبوه: أوقدوه، الجوانح: الأضلاع واحدته جانحة.

المزاوجة

قال البحترى يمدح الفتح بن خاقان:

علـى أَنَّـهـا مَا عِـنْدهـا لمـواصـلٍ وصـالٌ، ولا عنـها لـمُـصْطَبِرٍ صبـرُ
إذا ما نَـهى النَّاهـى فلجَّ بى الـهَوَى أصَاخَتْ إلى الـواشِى فلج بها الهـجرُ

* * *

فالبحترى فى البيت الثانى يصور حاله مع معشوقته من أنه لا يزيده نهى الناهى عن حبها إلا تمكينا فى الهوى وثباتا فى الحب، أما هى فسرعان ما يصرفها الوشاة عن حبها، فتسرف فى القطيعة، وتمعن فى الهجر، فشتان بين اللَّجاجين.

فقد جمع الشاعر بين الشرط «نهى الناهى» والجزاء «إصاختها إلى الواشى» ورتب عليهما لزوم شىء، وهو «لجاج الهوى، ولجاج الهجر» فكما أن حبه لها لازم ثابت لا يزيده النهى أو اللوم إلا قوة، كذلك هجرها لا تزيده الوشاية إلا شدة فى الهجر، وعنفا فيه.

ولا يخفى ما فى ترتب زيادة الهوى وتعلقه بها على نهى الناهى واللائم من المبالغة فى الحب، والتمكن فى العشق.

كما لا يخفى ما فى ترتب شدة الهجر على وشى الواشى من المبالغة فى أن حبها ضعيف وعلى شَفَا جُرُف، إذ يزيله مطلق الوشاية، فكيف يكون الحال لو رأت عيبا؟

فالمزاوجة: هى أن يجمع بين الشرط والجزاء فى ترتب لازم من اللوازم عليهما معا.

ومثل قول البحترى قول الآخر:

إِذا مـا بَدَتْ فـازدادَ منهـا جمـالُهـا نـظرتُ لـهـا فـازدادَ مِـنِّى غـرامُـهـا

فقد زاوج الشاعر بين الشرط «ظهورها» والجزاء «نظرت» ورتب عليهما لزوم شيء: وهو ازدياد الجمال، وازدياد الغرام.

ومثله قول البحترى - أيضا - يمدح المتوكل على الله:

إذا احْتربت يوما ففاضتْ دماؤُها تذكرت القُرْبى ففاضتْ دموعُها[1]

وقول الآخر:

رُبَّ ساق كأنه غصن بانٍ طاب فى رَوْضَةِ الملاحة غَرْسا

وإذا مابدى فأخجل بدراً لمعت كأسه فأخجل شمسا

فقد زاوج الشاعر بين ظهوره ولمعان كأسه فى الشرط والجزاء ورتب عليهما الخجل.

وقد عد الإمام عبد القاهر «المزاوجة» من النظم الذى يَتَّحِدُ فى الوضع ويدق فيه الصنع[2].

* * *

(١) احتربت: من الحرب، والمراد إذا تحاربت الفرسان.

(٢) دلائل الإعجاز (٧٠).

حسن التعليل

قال المتنبى يمدح بدر بن عمار:

مـا بـه قَـتْـلُ أعـاديـه ولـكـن   يتَّقِـى إخْلافَ ما ترجُـو الذئاب[1]

المـعروف عند الـناس أن الباعث عـلى سفك دمـاء الأعداء إنمـا هو إرادة هلاكهم، ودفع مضارهـم حتى تأمن النفس من منازعتهم، لكـن المتنبى لا يُسَلِّم بهذه العلة، ولا يرى أنهـا هى التى بعثت ممدوحه على قتـال أعدائه، وإنما الذى بعثـه على قتـاله: هو تمكن الـكرم من نفسـه حتى صار يـتقى أن يخـيب رجاء الذئاب، إذ أنها تأمل على يديه اتساع رزقها من قتلاه.

فقد ادعى الشاعر عـلة - لقتال الأعداء - غير العلة الحقيـقية - على جهة التظرف والتخييل. وهذا يسمى: «حسن التعليل»:

وهو أن يدعى الشاعـر أو الناثر علة غير الحـقيقية على جـهة الاستظراف، وذلك لتحقيـقه وتقريره - حيث إن الشيء إذا كان معللا كـان آكد فى النفس من إثباته مجردا عن التعليل.

* * *

ومثله قول أبى تمام:

لا تُنكرى عُـطْلَ الكريم من الـغِنَى   فـالسَّيلُ حـرْبٌ للـمكان الـعَـالِى

يخاطب الـشاعر نفسـه فيقول: لـيس عجبا أن يـتعطل الكريم مـن مظاهر الغنى، فهكذا أصحاب القيم الرفيعة، ألا ترى أن السيل لا يأوى الأماكن المرتفعة ولا يستقر بها، بل سرعان ما ينحدر عنها إلى الأماكن المنخفضة.

---

(١) ما به: ليس بالممدوح حنق أوجب قتل أعدائه، إخلاف ما ترجوه: عدم الوفاء به.

فالشاعر علّل حرمان الكريم النابه من الغنى بعلو القدر ورفعة الشأن، قياسا على الأماكن العالية، إذ هى ليست مستقرا للسيل.

كذلك قول أبى هلال العسكرى فى غلام نبت عِذَاره:

زعم البنفسجُ أنه كعِذارِه ... حُسْنًا، فسلُّوا من قَفَاهُ لِسانَهُ[١]

فى البنفسج زائدة تحت ورقه لا يظهر لوجودها على هذا الوضع علة تعلل بها، فادعى أبو هلال أنها كاللسان له، وقد سُلَّ من قفاه عقابا له على زعمه أنه يشبه عذار الغلام حسنا.

ومنه قول الشاعر:

فكأنما لَطَم الصَّباحُ جبينَه ... فاقْتَصَّ منه فخَاضَ فى أَحْشَائِه

فالصبح اعتدى على فرسه، ولطمه فى جبينه، فابيضت جبهته، فأراد الفرس أن يقتص ويثأر لنفسه، فهاجم الصبح وخاض بقوائمه فى أحشائه، فابيضت كذلك.

فبياض وجه الفرس وقوائمه وصف لا علة له فى واقع الأمر، لكن الشاعر علله بتلك العلة الخيالية.

ويقول ابن المعتز:

قالوا: اشتكَتْ عينهُ، فقلتُ لهم ... من كثْرة القتل نالها الوصَبُ

حمرتُها من دماءِ منْ قتلتْ ... والدَّمُ فى النَّصْل شاهدٌ عجَب[٢]

فحمرة العين وصف ثابت، وعلته ما يقع فى العين من قذى، أو ما يصيبها

(١) العذار: أول ما يبدو على الخد من شعر.

(٢) الوصب: المرض. النصل: الأصل حديدة السهم، والمراد عينها.

من رمد، ولكن الشاعر ادعى له علة ليست له فى الواقع، هى أن هذه الحمرة ناشئة من كثرة ما أسالت من دم العشاق.

والشاعر الذى يقول:

أرى بدْر السَّماءِ يلوحُ حينًا ... ويبْدُو ثم يلتَحِفُ السَّحَابَا
وذاك لأنه لمّا تبدَّى ... وأبْصَر وجهك استْحْيَا وغَابا

فهو يعلل هذا التعليل المليح،وغرضه،أن يدخل السرور على المخاطب، ويؤثر فى وجدانه بالتظرف فى مدحه، والتلطف فى الثناء عليه.

ومثله الذى يقول:

ما زُلْزِلَتْ مِصرُ من كيدٍ يُرادُ بها ... وإنما رقصَتْ من عدلِه طَرَبَا

فقد علل حادث الزلزال المخيف هذا التعليل الطريف، للتخفيف من هول هذا الحادث المزعج، ولمدح أمير مصر، ووصفه بالعدل، وهذا وذاك من شأنه أن يؤثر فى نفس الأمير، ويدخل عليه السرور.

بلاغة حسن التعليل:

ما ذكره الشعراء من هذه الأسباب والعلل من وليد أخيلتهم الخصبة، ونتاج وجدانهم الحى، وعواطفهم اليقظة، وليست هذه أسبابا أو عللا طبيعية مطابقة للواقع، وإنما يعمد إليها الشعراء ليوقظوا خيال القارئ، ويثيروا وجدان السامع وعاطفته، ويدخلوا السرور عليه بتلك العلل المستملحة والأساليب المستطرفة، وهذه هى خاصة التعليل الأدبى.

أما التعليل العلمى: فمرده إلى التعقل والتدبر، والبحث فى طبائع الأشياء، والتفكير المبنى على الاستقراء والبحث.

* * *

التجريد

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ، لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [فصلت].

* * *

فجهنم هى دار الخلد، لكنه جرد من جهنم دارا أخرى هى دار الخلد، وجعلها مُعَدَّة فى جهنم لأجل الكفار، تهويلا لأمرها، ومبالغة فى شدتها.

فالتجريد: هو أن ينتزع من أمر ذى صفة أو أكثر أمر آخر أو أكثر مثله فيها لإفادة المبالغة، وذلك بادعاء كمال الصفة فى ذلك الأمر، حتى كأنه بلغ من الاتصاف بتلك الصفة مبلغا يصح أن ينتزع منه موصوف آخر متصف بتلك الصفة، فالنار كأنها تفيض بمثيلتها لقوتها كما يفيض الماء من البحر.

* * *

ويأتى التجريد على عدة صور:

١- أن يكون بدخول «فى» على المنتزَع منه، كالآية السابقة.

٢- أن يكون بدخول «مِنْ» على المنتزَع منه كقولهم: لى من سعيد صديق حميم، فقد بلغ سعيد من الصداقة حدا يصح معه أن ينتزع منه شخص آخر مثله فى الصفة.

٣- أن يكون بدخول «الباء» على المنتزَع منه، مثل: لئن سألت سعيدا لتسألنّ به البحر، فقد بالغ فى اتصافه بالسماحة حتى كأنه انتزع منه بحرا.

٤- أن يكون بدخول «باء المعية» على المنتزع، كقولهم:

وشوهاء تعْدُو بى إلى صارخ الوغَى بمستلئمٍ مثلِ الفَنيقِ المرحَّلِ(١)

فهو يريد أنها تعدو بى ومعى من نفسى - لكمال استعدادها للحرب - لابس لأمة، فقد جرد من نفسه مستلئمًا مستعدًا للحرب.

٥- أن يكون بدون توسط حرف، كقول الشاعر:

فلئن بقِيتُ لأرْحلَنَّ بغَزْوَةٍ تَحْوى الغنائمَ، أو يموتَ كريمُ

فالشاعر يعنى بالكريم نفسه، وقد انتزع من نفسه كريما للمبالغة فى كرمه.

٦- أن يكون بطريق الكناية، كقول الأعشى:

يا خيرَ مَنْ يركبُ المَطِيَّ ولا يشْرَبُ كاسًا بكفٍّ مَنْ بخِلا

فقد انتزع الشاعر من المخاطب - وهو الممدوح - جوادا يشرب بكفه - على سبيل الكناية - لأنه إذا نفى عنه الشرب بكف البخيل، فقد أثبت له الشرب بكف الكريم، ومن البين أنه يشرب غالبا بكف نفسه، فهو حينئذ ذلك الكريم.

٧- أن يكون بمخاطبة الإنسان نفسه، فينتزع الإنسان من نفسه شخصا آخر مثله فى نفس الصفة، ويخاطبه، كقول الأعشى:

ودِّع هريرة إنّ الركْبَ مرتحلُ وهل تُطيقُ وداعًا أيها الرجلُ؟

وقول المتنبى يخاطب نفسه:

لا خيلَ عندكَ تُهديها ولا مَالُ فليُسعِدِ النطقُ إن لم يُسعدِ الحالُ

فهو يخاطب نفسه فيقول: أنت فقير لا تملك أن تجزى من أحسن إليك، فإذا كان هذا غير ممكن فلتقدم الممكن، وهو المدح والثناء.

---

(١) شوهاء: فرس قبيحة المنظر لسعة أشداقها، وهذا مما يستحسن فى الخيل. صارخ الوغى: الصارخ فى مكان الحرب. المستلئم: لابس اللأمة. الفنيق. الفحل الذى لا يركب لكرامته. المرحل: البعير الذى عليه رحله.

الاستدراج

يقول الطيبى[1]: ومن البيان الاستدراج، وهو استمالة المخاطب بما يؤثره ويأنس إليه، أو ما يخوفه ويرغبه، قبل أن يفاجئه المخاطَب بما يطلب منه.

وهو باب واسع، وهو أن يقدم المخاطب ما يعلم أنه يؤثر فى نفس المخاطَب من ترغيب وترهيب، وإطماع وتزهيد.

وأمزجة الناس تختلف فى ذلك، فينبغى أن يستمال كل شخص بما يناسبه، وهذا لا يؤثر فيه التعليم إلا يسيرا، بل ينبغى أن يكون فى مزاج الإنسان قوة تؤديه إلى ذلك، وهى تصرف فى الكلام كتصرف الإنسان فى أحواله وأفعاله بما يعود عليه نفعه.

ومن أحسنه موقعا وأشده تلطفا، قوله تعالى: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه].

فأمر سبحانه بالتلطف والاستدراج، بقوله: ﴿ فقولا له قولا لينا ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه]..

فأمنهما تعالى، ثم علمهما كيف يخاطبانه، فقال تعالى:

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه].

فقولهما: إنا رسولا ربك نسبة إليه، ولم يقولا: إنا رسولا ربنا؛ من التلطف البديع.

---

(١) الأقصى القريب (١٠٣، ١٠٤).

وقوله: ﴿ ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك، والسلام على من اتبع الهدى ﴾، أيضا غاية فى التلطف، فإنهما طلبا منه بنى إسرائيل، ولم يصرحا له بدعوته إلى الإيمان، وإخراجه عما هو عليه، وأسند ذلك إلى (الآية) استمالة له إلى رؤيتها.

ثم قالا: ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾، ولم يقولا له: اتبع - على سبيل الأمر - إبقاء لعظمته من نفسه.

ثم أتبعاه بما هو أشد، وهو الذى قدم التلطف بين يديه، فقالا: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، وفى هذا تلطف أيضا، إذ لم يخصاه به، وذكراه على سبيل العموم الذى يستلزم دخوله فيه.

ثم قال حكاية عن فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾؟، ثم قال تعالى حكاية عن جواب موسى - عليه السلام - إذ هو المسئول: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾.

فأجابه بالجواب المطابق لسؤاله المتضمن لكون ربهما ربه، وذلك قوله: ﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾.

ثم قال تعالى حكاية عن فرعون: قال: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾؟.

سأل عن أمر مغيب مهما أخبره به عنه يمكنه إنكاره قصدا للمغالطة، ولذلك لم يجبه موسى عليه السلام إلا بقوله: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾. وفى قوله: ﴿علمها عند ربى﴾، ولم يقل - عند ربنا - ولا عند الله، إشارة إلى إمكان علمه عليه السلام بها.

ثم عدد عليه نعم الله وآياته، تلطفا لاستمالته أيضا، بقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

فقوله بعد ما عدد ' مم بضمير الغائب وهو المتكلم به: ﴿فأخرجنا به أزواجا﴾ بضمير المتكلم الذى لا يجوز أن يكون المتكلم به عن نفسه إلا الله إعلام لفرعون أن جميع ما قلته لك من الله وليس منى.

ثم عقب ذلك بذكر نعمه وإباحتها لهم، وكونها آية لا تخفى على ذوى النهى، ثم أعلمهم أنه خلقهم من الأرض برحمته، ويعيدهم إليها بقدرته، ثم يخرجهم منها للجزاء، وذلك لعدله وبحكمته، وفى هذا دليل على أنه لا إله إلا هو، ولا رب غيره.

وهذا هو الذى لم يفاجأ به فرعون أولا، وتلطف به فى طريقه مع أنه من لطيف الكلام.

* * *

الفصل الثانى

المحسنات اللفظية

السجع

القرآن الكريم نزل على رسول الله ﷺ فى بضع وعشرين سنة، قضى منها عشرا فى مكة، والباقى فى المدينة، فكان من القرآن سور مكية وأكثرها قصار، وعددها ست وثمانون، وأخرى مدنية، وعدتها ثمان وعشرون.

والسور المكية نزلت فى بدء الدعوة، ولما كانت جماعات المشركين متعصبين لأديانهم وعاداتهم وتقاليدهم، وفى أخلاقهم جفوة، وفى ألسنتهم خصومة، اتجهت السور المكية فى خطابهم إلى الوجدان والمشاعر، تقسو عليهم بالزجر والتسفيه، والوعيد والتهديد، والترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار، فى أسلوب شديد الأسر، حاد قوى، متتابع السجعات الرنانة المدوية القصيرة.

نرى ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦﴾ [النجم].

وقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥﴾ ... إلخ [القمر].

وقوله: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾ ... إلخ [الذاريات]

فالآيات السابقة تنزيل من حكيم حميد، نرى فيها الفِقَر متعادلة الأجزاء رقيقة النغم، خفيفة الروح، موجزة اللفظ، وافية بالمعنى، فيها وزن وموسيقية ورنين، وهذا ما يقال له: **السجع**.

وهو فى اللغة: الكلام المقفى، أو موالاة الكلام على رَوِىٍّ واحد، وجمعه أسجاع وأساجيع(١). واشتقاقه من سجع الحمامة، وهو ترديد صوتها(٢).

وفى الاصطلاح: تواطؤ الفواصل فى النثر على حرف واحد(٣).

وليس معنى ذلك أن السور المدنية تخلو من السجع، ولكن الغالب عليها الاسترسال والهدوء وطول النفس؛ لأنها تخاطب عقول قوم آمنوا بها، واطمأنوا إلى هدايتها، فهى مسوقة لتقرير العبادات، وبيان الأحكام، وسن القوانين، وتنظيم المجتمع، وتهذيب الطبائع والأخلاق.

نلمس ذلك فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ، قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ، وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ، وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ، وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ، وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)﴾ [الحجرات].

السجع فى عصور اللغة:

كان للسجع منزلة سنية بين العرب فى الجاهلية، وكان يغمر كلامهم، وكان فيه سلامة الطبع، وقوة السليقة، ووضوح الفطرة، فمثلا:

---

(١) انظر، القاموس، الصحاح، أساس البلاغة، الإتقان (جـ٢/ ٩٧).

(٢) إعجاز القرآن (٨٧).

(٣) علوم البلاغة (٣٢٤)، يقال للجزء الواحد من السجع سجعة وجمعها سجعات، وفقرة، جمعها فِقَر وفِقَرات وفِقْرات، وقرينة لمقارنة أختها، وتجمع على قرائن، وللحرف الأخير منها حرف الروى، والفاصلة: هى الكلمة الأخيرة من القرينة، وجمعها فواصل، وسمى السجع فى القرآن فواصل أخذا من قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ﴾ [فصلت: ٣].

يقول أوس بن حارثة موصيا ابنه: «يا مالك، المنيّةُ ولا الدنيّة، والعتابُ قبل العقاب، والتجلُّد لا التبلُّد، واعلم أن القبر خير من الفقر، وشر شارب المُشْتَفّ، وأقبح طاعم المقْتَفّ، وذهاب البصر خير من كثير النظر[1]...».

ويقول قُسُّ بن ساعدة الأيادى فى سوق عكاظ: «أيها الناس، اسمعوا وَعُوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، ليلٌ داج، ونهارٌ ساج، وسماءٌ ذات أبراج، ونجومٌ تزهر، وبحار تزخر... إلخ»[2].

إلا ما كان من سجع الكهان[3] فنجده يَنِمُّ عن الصنعة، ويقوم على التكلف، يقول الكاهن الخزاعى فى تنفير هاشم بن عبد مناف على أخيه أمية بن عبد شمس:

«والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من منجد أو غائر، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر...[4]».

ولما جاء الإسلام كان من الطبيعى أن ينتهى سجع الكهان، وليس من المعقول أن يلجأ إليهم المسلمون ليستشيروهم فى حل مشكلاتهم، أو يحتكموا إليهم فى خصوماتهم، أو يستوحوهم نبأ ما حجب عنهم بعد أن عرفوا أن الغيب مما استأثر بعلمه الله وحده، وقرأوا قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ، وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ...﴾ [الأعراف: ١٨٨]

لكن اختفاء سجع الكهان لم يمنع من ظهور سجع آخر أغرق منه فى الكذب والضلال. وأكثر اضطرابا فى النظم، وسماجة فى التركيب وهو سجع

---

(١) شرح نهج البلاغة (جـ ٤/ ١٥٤)، المشتف: المستقصى، المقتف: العجول.

(٢) جمهرة خطب العرب (جـ٦/ ٣٥). داج: مظلم. ساج، ساكن. تزهر: تضىء، تزخر: تمتلئ.

(٣) الكهانة ومثلها العرافة: ضرب من القضاء بالغيب، وربما خصت بالأمور المستقبلة، والعرافة بالماضية.

(٤) السيرة الحلبية لابن برهان الدين الحلبى (جـ١/ ٥).

المتنبئين الذين استخفُّوا قومهم فأطاعوهم، مثل الأسود العنسى، ومسيلمة الكذاب، وسجاح بنت الحارث، وغيرهم.

ومن سجع مسيلمة آخذا من القرآن: «سبِّح اسم ربِّك الأعلى، الذى يسّر على الحبلى، فأخرج منها نسمة تسعى، من بين أحشاءٍ ومِعًى، فمنهم من يموت ويُدَسُّ فى الثرَّى، ومنهم من يعيش ويبقى، إلى أجل ومنتهى، والله يعلم السر وأخفى، ولا تخفى عليه الآخرة والأولى[1]».

ولم يكن الرسول ﷺ يحفل بالسجع، ولا يحرص عليه، وقد يقع فى كلامه عفوا حينما يتجه خطابه إلى الوجدان والمشاعر بالعظات والزواجر، كقوله: **«يقول العبد: مالى مالى!!، وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت، أو أعطيت فأمضيت، أو لبست فأبليت»**[2].

وقوله: **«أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»**[3].

وهذه الأسجاع كانت تتسم بالندرة إذا قيست إلى ما روى لنا من خطبه وأحاديثه، ونلمح أن عدم القصد فيها بين، حتى أن خطبته فى حجة الوداع - وهى أطول ما قاله، لا نجد فيها سجعة واحدة[4].

وظل السجع شائعا وبخاصة فى الوصايا والوعظ والحكم والأجوبة والملح والنوادر، وظلت له دولة مدة بقاء لغتهم فصيحة حتى أواسط القرن الرابع حيث كثر امتزاج العجم بالعرب، وضاعت النعرة العربية فيهم، ودب الفساد إلى لغتهم. وتحول القوم إلى الزخارف والزينة، وعدلوا عن الأسلوب الفطرى المطبوع الذى

---

(١) ثمار القلوب للثعالبى (١١٥).

(٢) البيان والتبيين (جـ١/ ٢٨٤).

(٣) الصناعتين (٢٠٠).

(٤) تاريخ الطبرى (جـ٢/ ١٥٠).

عرف به كتاب القرون الأولى إلى طريقة الصنعة والتزويق حتى جاء السجع حائل الصنعة، شاحب اللون، لا يلذ قراءة ولا سماعا.

وظل كذلك حتى أظلنا عصر النهضة الحديثة فبدأت الكتابة تنشط من عقالها بسبب طبع كتب التراث، وتعميم التعليم وانتشار الصحافة، والاحتكاك بالفكر الأجنبى. كل هذا خفف من وطأة السجع الثقيلة، وهون من شأن الزخرف والتصنيع، ومهدت للغة الترسل، وأصبح الشأن كله للمعانى تصب فى قوالب عربية واضحة سهلة بعيدة عن بهرج البديع.

أنواع السجع:

ينقسم السجع من حيث طول الفِقَر وقصرها إلى قسمين:

١- **قصير**: وهو ما كان مؤلفا من ألفاظ قليلة، وكلما أمعنت فى القلة كان أفضل، وأقل القصير ما كان من لفظتين، كقوله تعالى: ﴿ **وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢)** ﴾ [المرسلات].

وقوله: ﴿ **وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣)** ﴾ [الذاريات]

وقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥)** ﴾ [المدثر].

والسجع القصير يدل على قوة المنشئ، وتمكنه فى الصناعة، لصعوبة إدراكه، وعزة اتفاقه، ووعورة مذهبه، وبعد تناوله... ثم هو أجمل صورة، وأحلى موقعا، لقرب توارد الفاصلتين على السمع، ولاخفاء فى أن تواليهما بسرعة فى أزمنة متساوية - كما يقول جويو[1] - يشعر أننا بانسجام حاضر دائما، فتظل الأذن مهدهدة دون أن يفاجئها أى شىء غير منتظر.

---

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصرة (١٦٢).

ومنه ما يكون مؤلفا من ثلاثة ألفاظ، أو أربعة، أو خمسة، وينتهي إلى تسع كلمات أو إلى عشر[1] كقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ [النجم].

وقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾ [القمر].

٢- طويل: وتتفاوت درجاته في الطول: فمنه ما يتألف من إحدى عشرة لفظة، وأكثره خمس عشرة لفظة، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ [هود].

فالآية الأولى من إحدى عشرة لفظة، والثانية من ثلاث عشرة لفظة.

وقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة].

فالأولى من أربع عشرة لفظة، والثانية من خمس عشرة، ولا يصح أن يزيد على ذلك عند المولى عصام[3].

ويرى غيره[4] أن من السجع الطويل ما يصل إلى عشرين لفظة فما حولها، كقوله تعالى:

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا

(١) حسن التوسل (٥١)، عقود الجمان (جـ٢/ ١٥٧).

(٢) ومن عد المتوسط قسما مثل له بآيات سورة القمر (حاشية الدسوقي (جـ٤/ ٤٥٠)).

(٣) الفوائد الغياثية (٢٨٢).

(٤) حاشية الدسوقي (جـ٤/ ٤٥٠).

وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنفال]

فالآية الأولى عشرون لفظة، والثانية تسع عشرة، وهذا غاية ما ينتهى إليه طول السجع عند «القلقشندى»، وقوفا على ما ورد فى القرآن الكريم، الذى هو أفصح كلام، وأبدع نظام[1].

والسجع الطويل أسهل تناولا من السجع القصير؛ لأن طول تأليفه يجعل وصفه أخف مئونة على منشئيه.

فقر السجع ومقاديرها:

أحسن السجع ما كانت فقره - أو قرائنه - متساوية فى عدد الكلمات، لا يزيد بعضها على بعض، ولا تضر الزيادة فى عدد الحروف؛ لأن التساوى فيها غير مشروط.

وقد جاء ذلك كثيرا فى القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الواقعة].

وقوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ ﴾ [الضحى].

وقد تختلف القرائن طولا وقصرا، وهى أنواع:

١- أن تكون القرينة الثانية أطول من الأولى:

فإن كان الطول يسيرا لم يذم، كقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الفرقان].

---

(١) صبح الأعشى (جـ٢/ ٢٧٧).

فالأولى: ثمانى كلمات، والثانية تسع، والثالثة: تسع.

وقوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢)﴾ [النجم].

فإن كان الطول كثيرا يخرج عن حد الاعتدال، فإنه يستقبح، وقَدَّرُوا هذا الطول بمقدار الثلث.

على أنهم قالوا: إن محل القبح إذا وقعت الطويلة بعد فقرة واحدة، أما إذا وقعت بعد فقرتين أو أكثر فلا يقبح؛ لأن الأوليين تعدان بمثابة فقرة واحدة[1].

وقد علل العلماء قبح طول الثانية على الأولى بتعليل نفسى، فزاوجوا بين علم النفس والبلاغة:

فقال صاحب عروس الأفراح: «إن السمع أَلِفَ الانتهاء إلى غاية فى السجعة الأولى، فإذا زيد عليها ثقل عليه الزائد؛ لأنه يكون عند وصولها إلى مقدار الأولى كمن توقع الظَّفَر بمقصوده من فهم المراد له ولم يجده أمامه»[2].

وقال آخر: «واضح أن العقل يقدر القوة اللازمة لإدراك المقاطع، فإذا زاد المتكلم أو نقص، أو غَيَّر فى مقطع عن مألوف هيئته، تعثرت به أذن السامع، وشق عليها ذلك، كمن يسير فى سهل مستو على غير انتباه، فإنّ أَقَلَّ خلل فى الطريق من ارتفاع، أو انخفاض، أو اعتراض حجر - بخلاف ما هومقرر فى ذهنه - يوجب عثاره وتأذيه[3]».

وقال ثالث: «دقات الساعة المتوالية، حين تبدأ أو تتكرر يعيها السامع، ولما كان تكرار الدقات يتبع نظاما معينا فإن السامع يتوقع أن تتكرر الدقات بذلك

---

(١) حاشية الدسوقى (جـ٤/ ٤٤٩).

(٢) عروس الأفراح (جـ٤/ ٤٤٩).

(٣) فلسفة البلاغة (١٤٢).

النظام نفسه فى المستقبل، وقد يكون هذا التوقع أو الانتظام شعوريا وقد يحتل شبه الشعور. دليل ذلك أنه إذا توقفت الساعة عن العمل كان توقفها سببا فى لفت نظرك إليها، والبحث عن أسباب توقفها، ومعنى ذلك أن حدوث الأشياء بنظام مخالف لما نتوقع يحدث فى أنفسنا شيئا من الدهشة والاضطراب. . . وهذا هو عينه التعليل النفسانى لما يحدث من ارتياح عند الاستماع إلى الموسيقى الصوتية المنسجمة، أو إلى الشعر الموزون، أو إلى النثر المسجوع، أو الخاضع لنظام معين فى توالى الكلمات وسرد العبارات»[١].

٢- أن تكون القرينة الثانية أقصر من الأولى:

وقد هجن ذلك أصحاب الشروح، ومنعه الخفاجى[٢]، وعده ابن الأثير عيبا فاحشا[٣].

وعللوا ذلك: «بأن المبالغة فى القصر كثيرا ما تصدم السامع. . . فقد يلقى بنفسه فى ناحية، ويقدر بنفسه العبارة والوقت المقرر لها، ثم يجده قد وقف فجأة عندما توقفت الجملة كما لو اصطدم بعقبة، وكما لو قَدَّر الإنسان عدة درجات فى نزوله من سلم فوجدها أقل مما يقدر»[٤].

وقال آخرون: «إن السجع قد استوفى أمده بطوله، فإذا جاء الثانى أقصر منه كثيرا يبقى الإنسان عند سماعه، كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها»[٥].

ومع هذا، فقد جاء فى آيات الكتاب الحكيم ما قصرت فيه الثانية عن الأولى، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾ [الفيل].

---

(١) دراسات فى علم النفس الأدبى (٨٩).

(٢) شروح التلخيص (جـ٤/ ٤٥٠).

(٣) المثل السائر (جـ١/ ٣٣٥).

(٤) بلاغة أرسطو (٢٧٧).

(٥) شروح التلخيص جـ٤/ ٤٥٠)، المثل السائر (جـ١/ ٣٣٥).

فالأولى تسع كلمات بِحَرْفَي الجر والاستفهام، والثانية ست، وهذا غير مُضِر، إذ المضر إنما هو الزيادة بأكثر من الثلث، أما الزيادة بالثلث فأقل فلا تضر»[1].

وكقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ، وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ...﴾ [الأعراف: ١٠٠].

٣- أن تكون الأولى أقصر، والثانية والثالثة متساويتان.

وهو حسن، كقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان].

فالأولى من ثماني كلمات، والثانية والثالثة من تسع.

٤- أن تكون الأولى والثانية متساويتين، والثالثة زائدة عليهما:

كقوله تعالى:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ [الحاقة].

فـ «خذوه»: قرينة، و«غلوه» قرينة ثانية، وهما متساويتان، ولا عبرة بالفاء المأتي بها للترتيب، «ثم الجحيم صلوه»: قرينة ثالثة، وهي أطول مما قبلها»[2].

وقد رتبها المرشدي هكذا ﴿**خذوه فغلوه**﴾ قرينة، ﴿**ثم الجحيم صلوه**﴾ قرينة، ﴿**ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه**﴾ قرينة»[3].

استقلال السجعة بمعناها:

ذهب ابن الأثير إلى أن كل واحدة من السجعتين المزدوجتين يجب أن تكون مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه أختها، فإن كان المعنى

(١) حاشية الدسوقي (جـ٤/ ٤٥٠).

(٢) حاشية الدسوقي (جـ٤/ ٤٤٩).

(٣) حاشية المرشدي على عقود الجمان (جـ٢/ ١٥٦).

فيهما سواء فذلك هو التطويل بعينه؛ لأن التطويل إنما هو الدلالة على المعنى بألفاظ يمكن الدلالة عليها بدونها.

وحمل ابن الأثير على السجاعين الذين لم يهتدوا إلى ما اهتدى إليه فحادوا عن الطريق السوى، فقال: «وجُلّ كلام الناس المسجوع جارٍ عليه، وإذا تأملت كتابة المفلقين ممن تقدم كالصابى، وابن العميد، وابن عباد، وفلان وفلان، فإنك ترى أكثر المسجوع منه كذلك والأقل منه على ما أشرت إليه[1]».

وتابع ابن الأثير على رأيه كثير من العلماء[2].

لكن ابن أبى الحديد تعقب ابن الأثير، ففند رأيه بكلام سديد، فقال:

«هذه سنة الكتَّاب وعاداتهم وما زالوا عليها قديما وحديثا، وهم يرون ذلك من باب سعة العبارة، والاقتدار على الألفاظ، ثم إن السجعة الثانية تؤكد معنى الأولى، والتأكيد عمدة البيان والكتابة، ولذلك أحبوا فيها الإطالة وفى الشعر الاختصار، على أن القرآن الكريم - وهو على غاية الإيجاز والاختصار قد تضمن ذلك فى كثير من المواضع نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③﴾ [الناس].

فالرب ها هنا، والملك، والإله، بمعنى، فكل هذه السجعات قد أعطيت معنى الأخرى.

ومثل قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ⑭ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ⑮ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ⑯﴾ [النبأ].

فإن الجنات هى البساتين، ولا معنى للبساتين إلا ما كان محتويا على الحَبّ والنبات.

---

(١) المثل السائر (جـ١/ ٢٧٨).

(٢) صبح الأعشى (جـ٢/ ٢٧١)، عروس الأفراح (جـ٤/ ٤٤٨)، مواهب الفتاح (جـ٤/ ٤٤٩)، الإيضاح ضمن شروح التلخيص (جـ٤/ ٤٤٨).

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾﴾ [النبأ]، فإن عدم اعتقادهم للحساب هو تكذيبهم بالآيات.

ومثل هذا فى القرآن العزيز كثير جدا»[1].

وتعقيب ابن أبى الحديد، واستشهاده بآيات الذكر الحكيم تُلْجِم كل معترض، والدكتور على الجندى يزيد إيضاحا، فيقول:

«التكرار يأتى على قسمين:

تكْرار لا يزيد الكلام بهجة، ولا يمنح القارئ فائدة، وهو مستقبح حيث وقع؛ لأنه الحشو والفضول، والتطويل الذى أوسعه البلغاء ذما، وقصاراه أنه يضيع الوقت، ويورث التعب، ويبغض فى القراءة أو الاستماع، ويوقع فى الضجر والسآمة، وهو يدل على ضيق العطن، ونضوب المعارف، وجدب الفكر.

وتكْرار يخلع على الكلام رونقا وجمالا، ويضفى عليه بهاء وبشاشة، ويضيف إليه ألوانا من الأنغام المحببة، ويشقق منه صورا جديدة تحمل أطيافا جديدة من المعانى والأخيلة والعواطف.

وهذا الذى أسلفناه هو الفرق بين الإطناب والتطويل[2]».

«فالإطناب بلاغة، والتطويل عى؛ لأن التطويل بمنزلة سلوك ما يُبعِّد جهلا بما يُقرِّب، والإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيد نَزِهٍ يحتوى على زيادة فائدة[3]»».

والتَّكْرار الفنى البليغ لا يقع متحدا فى جوهره أبدا، بل لابد أن يتحفنا بشىء من التلوين اللفظى والمعنوى والصوتى، فيه جِدَّةٌ وطَرافة لا توجد فى الفقر السابقة.

(١) الفلك الدائر على المثل السائر (جـ٤/ ١٧٩).

(٢) فن الأسجاع (جـ١ـ/ ٢٢٤).

(٣) الصناعتين (١٤٣).

ولايذم الأسلوب المسجع بذلك لأن من لوازمه الإطناب، وقد سَلَّم له النقاد المحققون بهذه الخاصة، فأبو هلال العسكرى يقول:[1]

«ولا بد للكاتب فى أكثر أنواع مكاتباته من شعبة الإطناب، يستعملها إذا أراد المزاوجة بين الفصلين، ولا يعاب ذلك منه، مثل أن يكتب: عظمت نعمنا عليه، وتظاهر إحساننا لديه، فيكون الفصل الأخير داخلا معناه فى الفصل الأول، وهذا مستحسن لا يعيبه أحد.

ولما أحيط بمروان الأموى، قال خادمه «باسل»: «من أغفل القليل حتى يكثر، والصغير حتى يكبر، والخفى حتى يظهر، أصابه مثل هذا».

ثم يقول:«وهذا كلام فى غاية الحسن، وإن كان معنى الفصلين الأخيرين داخلا الأول فى الفصل».

والأستاذ الشايب يفرق بين الأسلوب العلمى والأسلوب الأدبى فى احتوائه على التكرار،«فالعلمى يميل إلى القصد فى التعبير، وترك الزينة والتأنق، والبعد عن التكرار والترادف، وتركيز المعانى وتحديدها تحديدا واضحا دقيقا في ألفاظ تختار بعناية بالغة لتشف عن مدلولها بعيدا عن الإبهام والاحتمال والاشتراك.

والأسلوب الأدبى من شأنه أنه يَعْنِى بالصورة ويستجيدها، ويتأنق فيها فيجلو علينا المعنى الواحد فى حلل مختلفة، ومعارض متباينة، زيادة فى الإمتاع والإطراف، وذلك يقتضى التكرار والترادف فى كثير من الأحيان.

والتكرار المعنوى جائز فى الخطابة لتثبيت الأفكار فى الأذهان، وتمكين السامعين من الفهم، ولقوة التأثير، ولكن لابد من تغيير العبارات[2]».

---

(١) الصناعتين (١٤٥).

(٢) الأسلوب (٩٤).

منزلة السجع من البلاغة:

اختلفت أنظار العلماء إلى السجع فذمه جماعة منهم، وعدوه عيبا، بينما مدحه آخرون بشروط يوجَدُ الحسن بوجودها، وينتفى بعدمها.

ومثار الخلاف ما روى أن رسول الله ﷺ قضى فى جنين امرأة ضربتها أخرى - فسقط ميتا - بِغرّةٍ[1] على عاقلة الضاربة، فقال رجل منهم: كيف نَدِيَ من لاشرب ولا أكلْ، ولا صاح فاستهلْ، ومثل ذلك دمه يُطَلّْ (يُهدر).

فقال ﷺ: إياكم وسجع الكهان[2]، أو - إنما هذا من إخوان الكهان[3].

وقوله عليه السلام لبعض أصحابه: **«وما يدريك أنه شهيد لعله كان يتكلم بما لا يعنيه، ويبخل بما لا ينفعه»**.

قال العسكرى: ولو قال: بما لا يغنيه لكان سجعا، والحكيم العليم يتكلم على قدر المقامات، ولعل قوله: «ينفعه» كان أليق بالمقام فعدل إليه»[4].

وعلى هذا استند من ذهب إلى ذم السجع.

وقال الرمانى: «السجع عيب، والفواصل بلاغة»[5].

وعابه الباقلانى: «لأن السجع يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى إلى

(١) الغرة: بالضم عبدأو أمة.

(٢) لسان العرب، وفى الصناعتين ٢٠٠: أسجعا كسجن الكهان، وفى إعجاز القرآن للباقلانى: أسجاعة كسجاعة الجاهلية.

(٣) الموطأ (جـ٢/ ١٩٢).

(٤) الصناعتين (٢٠١).

(٥) الإتقان (جـ٢/ ٩٧)، سر الفصاحة (١٦٥).

السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن؛ لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى»(١).

فسمى كل منهما ما ورد من القرآن على صورة السجع فواصل، رغبة فى تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة.

وقد تصدى للرد على من ذهب إلى ذم السجع وكراهيته - أخذا من الحديث السابق - كثير من البلاغيين، منهم:

ابن سنان(٢) فقد أثبت السجع القرآنى، ورد مذهب المخالفين، فقد بدأ بذكر مذهب المخالفين فى تسمية أواخر الكلمات فواصل لا أسجاعا، وتفرقتهم بين الأسجاع والفواصل، بأن الأولى تقصد لذاتها وتخضع للفظ، والثانية تتبع المعانى ولا تكون مقصودة فى أنفسها.

ثم فرق بين الفواصل والأسجاع، فقرر أن الأسجاع حروف متماثلة فى مقاطع الفصول، وأن الفواصل منها ما يكون متماثل الحروف فى المقاطع فيكون سجعا، ومنها ما يكون متقاربا لا متماثلا فلا يكون سجعا.

وكل من المتماثل والمتقارب، إما أن يكون طوعا سهلا تابعا لمعناه، وإما أن يكون على الضد من ذلك، فالأول محمود، والثانى مذموم.

والقرآن قد ورد فيه القسمان جميعا - المتماثل والمتقارب - وكلاهما من القسم المحمود.

مثال المتماثل قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤﴾ [الطور].

---

(١) إعجاز القرآن (٥٨).

(٢) سر الفصاحة (١٦٥-١٦٧).

وقوله: ﴿طه ﴿١﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴿٢﴾ إلا تذكرة لمن يخشى ﴿٣﴾ تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى ﴿٤﴾ الرحمن على العرش استوى ﴿٥﴾﴾ [طه].

وقوله: ﴿والعاديات ضبحا ﴿١﴾ فالموريات قدحا ﴿٢﴾ فالمغيرات صبحا ﴿٣﴾ فأثرن به نقعا ﴿٤﴾ فوسطن به جمعا ﴿٥﴾﴾ [العاديات].

وقوله: ﴿والفجر ﴿١﴾ وليال عشر ﴿٢﴾ والشفع والوتر ﴿٣﴾ والليل إذا يسر ﴿٤﴾ هل في ذلك قسم لذي حجر ﴿٥﴾﴾ [الفجر].

﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴿٦﴾ إرم ذات العماد ﴿٧﴾ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴿٨﴾ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴿٩﴾ وفرعون ذي الأوتاد ﴿١٠﴾ الذين طغوا في البلاد ﴿١١﴾ فأكثروا فيها الفساد ﴿١٢﴾﴾ [الفجر].

حذفوا الياء من «يسرى، الوادى» طلبا للموافقة فى الفواصل.

وقوله: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر ﴿١﴾ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴿٢﴾﴾ [القمر].

جميع هذه السورة على هذا الازدواج.

هذا جائز أن يسمى سجعا؛ لأن فيه معنى السجع، ولا مانع فى الشرع يمنع من ذلك.

ومثال المتقارب فى الحروف قوله تعالى: ﴿الرحمن الرحيم ﴿٣﴾ مالك يوم الدين ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة]، وقوله: ﴿ق والقرآن المجيد ﴿١﴾ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴿٢﴾﴾ [ق].

وهذا لا يسمى سجعا؛ لأن حروفه غيرمتماثلة.

ثم خطأ الرمانى فى إطلاقه القول: «إن السجع عيب، والفواصل بلاغة» لأنه إن أراد بالسجع ما يكون تابعا للمعنى وكأنه غير مقصود، فذلك بلاغة، والفواصل مثله. وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعانى تابعة له وهو مقصود متكلف، فذلك عيب، والفواصل مثله.

وكما يعرض التكلف فى السجع عند طلب تماثل الحروف، كذلك يعرض فى الفواصل عند طلب تقارب الحروف».

ويقول حازم القرطاجنى(١):

«وكيف يعاب السجع على الإطلاق، وإنما نزل القرآن على أساليب الفصيح من كلام العرب، فوردت الفواصل فيه بإزاء ورود الأسجاع فى كلام العرب، وإنما لم يجئ على أسلوب واحد؛ لأنه لا يحسن فى الكلام جميعا أن يكون مستمرا على نمط واحد لما فيه من التكلف، ولما فى الطبع من الملل عليه، فلهذا وردت بعض آى القرآن متماثلة المقاطع، وبعضها غير متماثل.

ولا شك أن الفصل الذى عقده الباقلانى لنفى السجع عن القرآن، والرد على مخالفيه بحجج أوهى من بيت العنكبوت يعتبر أخف فصول الكتاب وزنا، وأقلها قدرا، وأحفلها بالخطأ البين فى أصل الفكرة، وفى كيفية نصرتها والدفاع عنها، والحجاج دونها، والرد على مخالفيها، ومرد ذلك إلى أن الباقلانى قد اندفع فى كلامه بدافع المناصرة لمذهب الأشاعرة الذى كان يدين به».

ويقول ابن الأثير(٢):

«إن النهى لم يكن عن السجع نفسه، وإنما النهى عن حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع... أى أتتبع سجعا كسجع الكهان؟ وكذلك كان الكهان كلهم، فإنهم كانوا إذا سئلوا عن أمر جاءوا بالكلام مسجوعا... فالسجع إذا ليس بمنهى عنه، وإنما المنهى عنه هو المتبوع فى قول الكاهن... وإلا فالسجع الذى أتى به الرجل لا بأس به ... وهذا كلام حسن من حيث السجع، وليس بمنكَرٍ لنفسه، وإنما المُنْكَر هو الحكم الذى تضمنه فى امتناع الكاهن أن يَدِىَ الجنين بغرة: عبد أو أمة».

(١، ٢) المثل السائر (جـ١/ ٢٧٣-٢٧٥).

وهناك كلام آخر لابن الأثير، يقول:

«لو كره النبى ﷺ السجع مطلقا، لقال: أسجعا؟ ثم سكت. وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل، لم كان؟، فلما قال: «أسجعا كسجع الكهان»؟، صار المعنى معلقا على أمر - أنه لم يذم السجع على الإطلاق - هو إنكار الفعل، لم كان على هذا الوجه؟.

فعلم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير، وأنه لم يذم السجع على الإطلاق.

ومن أجازوا السجع فقد أجازوه بشروطه:

يقول ابن وهب: «ومن أوصاف البلاغة أيضا: السجع فى موضعه وعند سماح القريحة به، وأن يكون في بعض الكلام لا جميعه»[١].

ويقول أبو هلال العسكرى: «لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا، ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن لأنه من نظمه خارج عن كلام الخلق... فكل هذا يؤذن بفضيلة السجع على شرط البراءة من التكلف، والخلو من التعسف»[٢].

ويقول الإمام عبد القاهر: «وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا، ولا سجعا حسنا، حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغى به بدلا، ولا تجد عنه حولا»[٣].

---

(١) نقد النثر - البرهان فى وجوه البيان (١٠٧).

(٢) الصناعتين (١٩٩، ٢٠٠).

(٣) أسرار البلاغة (٧)، وقد مثل عبد القاهر للسجع المطبوع والتجنيس من الحديث النبوى وكلام البلغاء ولم يتعرض لسجع القرآن ولم يمثل له،ولعله آثر السلامة بعدم التعرض لهذا الموضوع الشائك.

ويقول ابن الأثير: «وقد ذمه بعض أصحابنا... ولا أرى لذلك وجها سوى عجزهم أن يأتوا به، وإلا فلو كان مذموما لما ورد فى القرآن الكريم... وقد ورد على هذا الأسلوب من كلام النبى ﷺ شىء كثير.

واعلم أن الأصل فى هذا السجع إنما هو الاعتدال فى مقاطع الكلام، ليس الوقوف فى السجع عند الاعتدال فقط، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد، إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب من الأدباء سجاعا.. فإذا صُفى الكلام المسجوع من الغثاثة والبرْد فإن وراء ذلك مطلوبا آخر وهو أن يكون اللفظ فيه تابعا للمعنى، لا أن يكون المعنى فيه تابعا للفظ، فإنه يجىء عند ذلك كظاهر مُمَوَّه، على باطن مُشَوَّه ويكون مثله كغِمْدٍ من ذهب على نَصْلٍ من خشب»(١).

ولا حرج علينا بعد هذا أن نطلق على فواصل القرآن أسجاعا، وإذا تتبعنا مثلا سورة «القمر» نجد سجعاتها قد بنيت على حرف الراء، لا تجد حرفا مستكرها، ولا فاصلة قلقة، ولا تضحية بالمعنى فى سبيل السجع، مما جعله يفيض سحرا ويقطر عذوبة.

* * *

وفواصل الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز(٢)، موقوفا عليها؛ لأن الغرض أن يزاوج بينها، ولا يتم ذلك فى كل صورة إلا بالوقف والبناء على السكون، كقولهم: «ما أبعد ما فاتْ، وما أقربَ ما هو آتْ»، فإنه لو اعتبرت الحركة لفات السجع؛ لأن التاء من «فاتَ» مفتوحة ومن «آتٍ» مكسورة منونة، وهذا غير جائز فى عرف القوافى، ولا يتحقق فيه التزاوج بين الفواصل.

---

(١) المثل السائر (جـ١/ ٢٧١ ـ ٢٧٦).

(٢) أواخر فواصل القرائن.

الحسن اللفظى والمعنوى للسجع

من الباحثين مــن ينظر إلى السجع فى القرآن الكريم على أنه منـاسبة لفظية مرغوبة ومطلوبة فى اللغة العربية، فهو يريح القارئ من البَهْر، ويرشده إلى تلوين الصـورة، وإجادة الوقف، ويـزيد من روعة الـتلاوة بما يـخلع عليـها من إيـقاع محبب، ويمد القُرَّاء بألوان من التنغيم المؤثر الأخاذ.

وهذا إن صدق فى سجع الكتاب فلا يصـدق إطلاقا على السجع فى القرآن الكريم، فعلينا ألا ننظر إلى بلاغة الســجع فى القرآن هذه النظرة المحدودة التى لا تكاد تتجاوز الألفاظ والصيغ، فإن هذه الصورة اللفظية الحسية مع جمالها لا يصح أن تصـرفنا ولا تحـجب عن ذهـننا مـا استـتر فـيه من بـدائع الأسرار، ودقـائق الأغراض.

كما أن من مزايا السجع فى القرآن الكريم شدة ارتباط الفاصلة بما قبلها من الكلام بحيث تـنحدر على الأسماع انحدارا، وكـأن ما سبقها لم يكن إلا تـمهيدا لها، وبحيث لو حُذِفَت لاختل معنى الكلام، ولو سُكِتَ عنها لاستطاع السامع أن يختمه بها انسياقا مع الطبع، والذوق السليم.

يتجلى ذلك فى قوله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢)﴾ [النجم].

فكلمة ﴿ضيزى﴾ عدَّها ابن الأثيـر من الألفاظ الغريبة التى حـسنت بحسن موقعـها، ثم علل ذلك بأنـها جاءت على الحرف الـمسجوع التى جـاءت السورة جميعها علـيه، وغيرها لا يسد مسدها، وقد يكون هناك لفـظة أحسن منها مثل: (جائرة، أو ظالمة)، لكـنها فى هذا الموضع لا ترد ملائمة لأخواتـها ولا مناسبة

لأنها تكون خارجة عن حرف السورة، فلو قلنا: ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذا قسمة ظالمة، لم يكن النظم كالنظم الأول، وصار الكلام كالشيء المعوز الذى يحتاج إلى تمام، وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام»[1].

فابن الأثير أرجع الجمال والحسن إلى شيء لفظى خالص، وهو مراعاة التقارب فى مقاطع الفواصل، ليتم لها الإيقاع الحسن والانسجام الموسيقى، وهو كلام مسلم بحكم السمع والذوق.

لكن الرافعى[2] ينظر إلى الآية نظرة أخرى شاملة، وتناولها من ناحية اللفظ والمعنى، ويقودنا إلى سر الإعجاز، فيقول:

«وفى القرآن لفظة هى أغرب ما فيه، وما حسنت فى كلام قط إلا فى موضعها، وهى كلمة ﴿ضِيزَى﴾، ومع ذلك فإن حسنها فى نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه، ولو أدرت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها، فإن السورة التى هى منها - وهى سورة النجم - مفصلة كلها على حروف «الياء»، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل.

ثم يقول بعد ذلك - مضيفا إلى ما أدرك ابن الأثير - ثم هى فى معرض الإنكار على العرب، إذ وردت فى ذكر الأصنام، وزعمهم فى قسمة الأولاد فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله مع وأدهم البنات، فقال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾، فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التى أنكرها، وكانت الجملة كلها تُصوِّر فى هيئة النطق بها الإنكار فى الأولى، والتهكم فى الأخرى، وكان هذا التصوير أبلغ ما فى

(١) المثل السائر (جـ١/ ٢٣٠).

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (٢٦١).

البلاغة خاصة فى اللفظة الغريبة التى تمكنت فى موضعها من الفصل، وَوَصَفت حال المتهكم فى إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدّين فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت - إلى ذلك - غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية.

والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام، وله نظائر فى لغتهم، وكم من لفظة غريبة عندهم لا تحسن إلا فى موضعها، ولا يكون حسنها - على غرابتها - إلا أنها تؤكد المعنى الذى سيقت إليه بلفظها وهيئة منطقها، فكان فى تأليف حروفها معنى حسيا، وفى تأليف أصواتها معنى فى النفس».

* * *

درج العلماء الذين لا يتحرجون من إطلاق السجع على الفواصل القرآنية، أن يذكروا فى مقام الاستدلال على أن السجع أسلوب مقصود للقرآن الكريم، أن الاتفاق واقع على أن «موسى» أفضل من أخيه «هارون» عليهما السلام، ولمكان السجع قيل فى بعض المواضع من القرآن الكريم: «هارون وموسى»[١]. تمشيا مع الانسجام الموسيقى فى نسق الكلام، وقيل فى موضع آخر: «موسى وهارون»[٢]. لأن الفواصل قبل ذلك مبنية على الواو والنون[٣].

وهؤلاء لا يقصدون من كلامهم إلا النظر إلى الحلية اللفظية والحسن الصوتى.

لكن الباقلانى[٤] وجد أن السجع فى الآيات ينطوى على مقاصد معنوية تنكشف للباحث، فيقول فى مقام الرد عليهم:

«ما ذكروه من تقديم «موسى» على «هارون» فى موضع، وتأخيره عنه فى موضع لمكان السجع، ولتساوى مقاطع الكلام، ليس بصحيح، والفائدة غير ما ذكروه.

---

(١) الآية: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه].

(٢) الآية: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء].

(٣) فن الأسجاع (جـ٢/ ١٧٢)، الإتقان (جـ٢/ ٩٧).

(٤) إعجاز القرآن.

وهى أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحدا من الأمر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحة، وتتبين فيه البلاغة، وقد أعيد كثير من القصص فى مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة، ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكررا، فعلى ذلك يكون المقصد بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها - إظهار الإعجاز على الطريقين جميعا دون التسجيع الذى توهموه.

أو أن الأغلبية من قوم موسى تنظر إليه نظرة القائد لهذه المعركة فتقدمه، كما أن بعضا من القوم ينظر إلى هارون نفس النظرة، إذ كان صاحب بيان أكثر من موسى[1].

* * *

كما درجوا على القول بأن المفعول حذف من «قلى» فى قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى]، لرعاية الفاصلة مع ﴿سجى﴾.

وكأن القائل بهذا لم يجد أثرا لهذا الحذف فى المعنى مطلقا، فلم يبق إلا هذا الاعتبار التافه الذى إن صح أن يقال فى غير القرآن الكريم، فلعله آخر ما يمكن أن يقال، بل هو عند أهل الفن مما لا ينبغى أن يقال فى القرآن»[2].

لكن هذا الحذف وقع؛ لأن البلاغة تقتضيه استغناء عن المحذوف بذكره من قبل فى: ﴿ما ودعك﴾.

ومثله فى السورة نفسها:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى]، فهو اختصار لظهور المحذوف[3]، وهو اختصار يقع من إيجاز الحذف فى أفضل منازله.

---

(١) القصص القرآنى فى مفهومه ومنطوقه (٢٨٤).

(٢) البلاغة والفلسفة (٧).

(٣) الكشاف (جـ٤/ ٦١١).

بقى الجانب المعنوى من البلاغة، وفيه نموذج رائع لأدب الخطاب فى التنزيل الحكيم، وهو أن حذف المفعول قد وقع لئلا يواجه الرسول - عليه الصلاة والسلام - بنسبة القلى إليه، وإن كان فى كلام منفى - لطفا به وشفقة عليه.

أو لنفى صدور القلى عنه - عز وجل - بالنسبة له ﷺ ولأحد من أصحابه إلى يوم القيامة(1).

* * *

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ [طه].

فى نزول الآية على هذا الترتيب وبتلك الحلية اللفظية ما يثير التساؤل: بأن المناسب والظاهر من السياق أن يجتمع الجوع والظمأ، والعرى والضحو، لظهور التناسب بينها، فلماذا عدل عن ذلك إلى أسلوب السجع؟

لكن للنسق الإلهى أسرارا دقيقة، منها:

١- فى ذكر الآية على هذا الترتيب تناسب معنوى دقيق، فإن الجوع خلو باطنى من الطعام، والعرى خلو ظاهر من اللباس، فكلاهما عرى، والظمأ حرقة داخلية فى الجوف، والضحو حرقة خارجية فى الجسد، فكلاهما حرارة.

٢- إن الشِّبع والرِّى والكُسوة والكِنّ، هى الأقطاب التى يدور عليها كفاف الإنسان، فذكّر آدم باستجماعها له فى الجنة، وأنه مكفى لا يحتاج إلى كفاية كَافٍ، ولا إلى كسب كاسب، كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا، وذكرها بلفظ النفى لنقائضها التى هى (الجوع والعرى والظمأ والضحو)

---

(1) روح المعانى للألوسى (جـ٣٠/١٥٦).

ليطرق سمعه بأسامى صنوف الشقوة التى حذره منها، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها[1].

٣- فى هذا الترتيب سر بديع من البلاغة يسمى قطع النظير عن النظير[2] ذلك أنه قطع الظمأ عن الجوع، والضحوة عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها، ولو قُرِنَ كلا بشكله لتوهم المعدودات نعمة واحدة.

* * *

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة].

ختمت الآية الأولى بـ﴿تؤمنون﴾، والثانية بـ ﴿تذكرون﴾، ووجهه: أن مخالفة القرآن لنظم الشعر ظاهرة واضحة لا تخفى على أحد، فقول من قال: شعر، كفر وعناد محض، فناسب ختمه بقوله: ﴿قليلا ما تؤمنون﴾.

وأما مخالفته لنظم الكهان وألفاظ السجع فيحتاج إلى تدبر وتذكر؛ لأن كلا منهما نثر، فليست مخالفته لهما فى وضوحها لكل أحد كمخالفته للشعر، وإنما تظهر بتدبر ما فى القرآن من الفصاحة والبلاغة والبدائع والمعانى الأنيقة، فحسن ختمه بقوله: ﴿قليلا ما تذكرون﴾[3].

* * *

وقد تجتمع الفواصل المسجوعة فى موضع واحد ويخالف بينها لغرض معنوى، وسر بلاغى، يقول تعالى:

---

(١) الكشاف (جـ٣/ ٧٢).

(٢) الانتصاف لابن المنير (جـ٣/ ٧٢) على هامش الكشاف.

(٣) الإتقان (جـ٢/ ١٠٢).

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام].

فقد ختمت الآية الأولى بقوله: ﴿ **لقوم يعلمون** ﴾، والثانية بقوله: ﴿ **لقوم يفقهون** ﴾، والثالثة بقوله: ﴿ **لقوم يؤمنون** ﴾.

وذلك أن حساب النجوم والاهتداء بها يختص بالعلماء، فناسب ختمه بـ﴿ **يعلمون** ﴾، وإنشاء الخلائق من نفس واحدة، ونقلهم من صلب إلى رحم، ثم إلى الدنيا، ثم إلى حياة وموت، والنظر فى ذلك أدق، فناسب ختمه بـ﴿ **يفقهون** ﴾؛ لأن الفقه فهم الأشياء الدقيقة، ولما ذكر ما أنعم به على عباده من سعة الأرزاق والأقوات والثمار وأنواع ذلك، ناسب ختمه بالإيمان الداعى إلى شكره - تعالى - على نعمه[1].

* * *

وقوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[2] [السجدة].

---

(١) الإتقان (جـ٢/ ١٠٢).

(٢) يهد لهم: يبين لهم. الجرز والمجروزة: التى لا تنبت، أو أكل نباتها، أو لم يصبها مطر.

فأتى فى الآية الأولى بـ﴿يهد لهم﴾، وختمها بـ﴿يسمعون﴾؛ لأن الموعظة فيها مسموعة، وهى أخبار القرون.

وأتى فى الثانية بـ﴿يَرَوْا﴾، وختمها بـ﴿يبصرون﴾، لأن الموعظة مرئية»(١).

* * *

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس].

فإن الصمم مرتبط بالعقل، والعمى مرتبط بالبصر.

وفوق ذلك ففى الآية ما يسمى بـ﴿المضاعفة﴾، وهى أن يتضمن الكلام معنيين: معنى مصرح به، ومعنى كالمشار إليه.

فالمعنى المصرح به هنا: أنه لا يقدر أن يهدى من عمى عن الآيات، وصَمَّ عن الكلم البينات، بمعنى أنه صرف قلبه عنها فلم ينتفع بسماعها ورؤيتها.

والمعنى المشار إليه: أنه فضل السمع على البصر؛ لأنه جعل مع الصمم فقدان العقل، ومع العمى فقدان النظر فقط(٢).

وهذا من معجزات القرآن الكريم، فربطه السمع بالعقل، وإشارته إلى أفضليته على البصر، كشف عنه العلم الحديث وتقره المشاهدة، فالسمع من منافذ العقل، والأصم ليس إلا حجرا أصم.

وأما العمى فلم يقعد بصاحبه يوما عن بلوغ مراتب النبوغ والعبقرية، ولعله من المرشحات لها(٣).

---

(١) الإتقان (جـ٢/ ١٠١).

(٢) الصناعتين (٣٣٧).

(٣) فن الأسجاع (جـ٢/ ١٩٤).

وفى ذلك يقول «جويو»[1]: ولعل فى إمكان الشاعر الذى ولد أعمى أن يرسم لشعره صورا ملونة إلى أبعد حد، برغم أنه لا يعتمد إلا على إحساسات اللمس والسمع والشم.

إن جمال الشمس لا يقوم على النور وحده، ولقد قال أحد العميان: إنى لأسمع الشمس لحنا جميلا.

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج].

ويقول الشاعر[2]:

إذا حلَّ نورُ الله فى قلب عبْدِه ... فما فَاتَهُ من نُور عَيْنيه محْتقَرْ
لقد طبّق الدنيا «المَعَرّى» شُهرةً ... وسارت مسيرَ الشَّمس ذكراه والقمرْ
وعُمِّر فيها مُبْصرون كأنهم ... هوانًا على التاريخ ليسوا من البشرْ
فلا تحسب العين البصيرة مغْنَمًا ... لمن ليس ذا قلب وإن زانها الحورْ

* * *

وقوله تعالى:

﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه].

(١) مسائل فلسفة الفن المعاصر (٥٩-٦٥-٧٢).

(٢) الحان الأصيل (٣٤١).

قد يظن ظان عند النظرة الخاطفة فى الآيات السابقة أن القرآن يحافظ على النغم الموسيقى والنظام السجعى فقط، حيث يقول: ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾، وإلا لقال مثلا: «إما أن تُلْقى وإما أنْ نُلْقى».

والحق أن الآية بوضعها الذى جاءت عليه قد بلغت فى السمو القولى غايته، فهى بوضعها القائم تشير إلى ما كان يتردد فى نفوس هؤلاء السحرة من نشوة بالنصر، واعتقاد جازم بهزيمة موسى وأخيه، ومن هنا كان سواء لديهم أن يُلقى موسى عصاه أوَّلا، أو يُلقوا حبالهم وعصيهم أوَّلا.

فإذا زدنا بعد ذلك محافظة القرآن على النسق فى الفاصلة، حتى يطرد النظم كان غاية فى دقة النظم، وتمكن الفاصلة.

ومن هنا كان التعبير القرآنى فى قمة السمو فى التعبير، بخلاف التعبير «إما أن تُلْقىَ وإما أن نُلْقى» فهو فضلا عن عدم اضطراد النظم، ومخالفة الفاصلة لما قبلها وما بعدها، فإن فيه ما يشير إلى عوامل الشك والقلق الذى ينتاب السحرة من نتيجة الإلقاء.

* * *

والتصريع فى النظم كالسجع فى النثر، ويُشَبَّه البيت المصروع بباب له مصراعان متشاكلان، وهو فى أول أبيات القصيدة أحسن من تركه، فأما فى أثنائها فقد يحسن ما قل منه دون ما كثر. وقد استعمله امرؤ القيس فى الأول وفى الوسط، فقال فى مطلع معلقته:

قِفَا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ … بسِقْط اللِّوى بين الدَّخُول فحومَلِ

وفى أثنائها:

أفاطم مهلا بعضَ هذا التدلُّل … وإن كنتِ قد أزمعتِ صرْمى فأجملى

وكذلك التشطير: وهو أن يجعل كل من شطرى البيت سجعة مخالفة لأختها، كقول أبى تمام يمدح المعتصم عند فتح عمورية:

تدبيرُ معتصمٍ، بالله مُنتقِمٍ … لله مرتَغِبٍ، فى الله مُرتَقِبِ

لزوم ما لا يلزم

قد يُشَدِّد الناثر أو الشاعر على نفسه فيلزمها بما ليس بلازم، وذلك بأن يلتزم قبل حرف الرَّوِيّ - أو ما فى معناه من الفاصلة - ما ليس بلازم فى السجع.

فمن التزام الحرف والحركة: قوله تعالى:

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾﴾ [الطور].

وقوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [الضحى].

ومن الشعر قول الطغرائى:

أصالةُ الرأيِ صانَتْنِى عن الخَطَلِ … وحليةُ الفضلِ زانتنى لدَى العَطَلِ

ومن التزام حرفين وحركتين: قوله تعالى: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾ [القلم].

وقوله: ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة].

ومن الشعر قول الشاعر:

سلِّم على قَطَنٍ إنْ كنتَ نَازِلَه … سلامَ مَنْ كان يَهْوَى مَرَّةً قَطنا
أُحبُّه والذى أَرْسَى قواعدَه … حُبًّا إذا ظهرتْ آياتُه بَطَنَا
مَا مِنْ غريبٍ وإنْ أَبْدى تَجلُّدَه … إلا تذكَّر عند الغُرْبَةِ الوَطَنَا

ومن التزام أكثرمن حرفين وحركتين قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) التزام حرف الطاء وحركتها، فهو من النوع الاول.

ومن الشعر قول الشاعر:

سأشكر عمرًا إنْ تراختْ منيَّتى   أيادِىَ لم تُمْنَن وإنْ هى جلَّتِ

فتًى غيرُ محجوب الغِنى عن صديقه   ولا مُظْهر الشكوى إِذَا النَّعل زلَّت

رأى خلَّتى من حيثُ يَخفَى مكانُها   فكانتْ قَذَى عينه حتى تجلَّت(١)

وقد يكون الالتزام فى الحرف وحده، كقوله تعالى:

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾ [القمر].

وقد يكون فى الحركة وحدها، كقول ابن الرومى:

لِمَا تُؤْذِنُ الدنيا به مِن صُرُوفها   يكونُ بكاءُ الطِّفل ساعةَ يُولَدُ

وإِلا فما يُبْكيه منها وإنها   لأوْسعُ ممَّا كان فيه وأرْغَدُ

ولأبى العلاء المعرى الباع الطويل فى هذا النوع، فقد عمل ديوانا كاملا وهو المعروف بـ«سَقْط الزَّند».

ولزوم ما لا يلزم ضرب من السجع وإن وقع فى الشعر، ولا يخفى ما فيه من التكلف، وأما ما جاء منه فى القرآن فهو غير مقصود، ولا متعمد، وإنما جاء تابعا للمعنى، ومطلوبا للمقام، واستُدعى للمناسبة.

* * *

(١) المراد أن يكون ذلك فى بيتين أو أكثر أو فى فاصلتين أوأكثر. الأيادى: المراد بها النعم، مجازا مرسلا. لم تمنن: لم تخلط بمنة. إذا النعل زلت: كناية عن نزول الشر. الخلة: الحاجة. القذى: ما يقع فى العين والشراب.

الجناس

الجناس من الحلى اللفظية والألوان البديعية التى لها تأثير بليغ، تجذب السامع، وتحدث فى نفسه ميلا إلى الإصغاء والتلذذ بنغمته العذبة، وتجعل العبارة على الأذن سهلة ومستساغة، فتجد من النفس القبول، وتتأثر به أى تأثير، وتقع من القلب أحسن موقع.

نرى ذلك ونحسه فى قوله تعالى فى وصف حال الكفار يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ...﴾.

[الروم: ٥٥]

وقوله تعالى فى بيان سبب عقاب المكذبين:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ .... ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [غافر: ٦٩ - ٧٥]

وقوله تعالى فى أوصاف حالات احتضار الكفار:

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة].

وقوله تعالى فى وصف أحول الأمم الغابرة:

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الصافات].

وقوله تعالى يحكى خطاب هارون إلى أخيه موسى:

﴿قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ [طه: ٩٤].

* * *

في الآية الأولى نلاحظ أن لفظ «ساعة» الأول قصد به يوم القيامة، والثانى قصد به المدة الزمانية.

فاللفظان المتماثلان فى تلك الآية اتفقا فى أربعة أمور وهى:

أنواع الحروف، وعددها، والهيئة الحاصلة من الحركات والسكنات، وترتيب الحروف، واللفظان إذا اتفقا فى هذه الأشياء الأربعة سمى «جناسا تاما».

وإذا اختلف اللفظان فى واحد من هذه الأمور الأربعة سمى «جناسا غير تام».

ففى الآية الثانية: نجد الاختلاف بين «تفرحون، وتمرحون» فى نوع الحروف.

وفى الآية الثالثة: نجد الاختلاف بين «ساق، والمساق» فى عدد الحروف.

وفى الآية الرابعة: نجد الاختلاف بين «منذِرين، ومنذَرين» فى حركات الحروف.

وفى الآية الخامسة: نجد الاختلاف بين «بين، وبنى» فى ترتيب الحروف.

وكل هذا يسمى «جناسا غير تام».

فالجناس: تشابه اللفظين فى النطق مع اختلافهما فى المعنى.

وهو نوعان: تام، وهو ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان فى أربعة أمور: نوع الحروف، وعددها، وهيئتها، وترتيبها، وغير تام: وهو ما اختلف فيه اللفظان فى واحد أو أكثر من الأمور الأربعة السابقة.

الجناس فى عصور اللغة:

الجناس قديم قِدَم اللغة العربية، ووليد الصحراء، يأتى فى كلام العرب عفو الخاطر، ويصدر عن الطبع والفطرة، لا تكلف فيه ولا تصنع.

يقول امرؤ القيس:

وإن كنتِ قد ساءتْك مِنِّى خليقةٌ ... فَسُلِّى ثِيَابى من ثيابك تَنْسُلِ(1)

ويقول زهير:

كأنَّ عَيْنِى وقد سَالَ السَّلِيلُ بهم ... وعَبْرَةٌ مَاهُمُ لوْ أَنَّهمْ أَمَمُ(2)

ووجد كثير منه فى القرآن الكريم، والحديث الشريف، كقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**المسلم من سَلِم المسلمون من لسانه ويده**».

وكانت تلك الصورة موجودة بمادتها من غير أن تُعرف أسماؤها، وظل الحال كذلك حتى تم الامتزاج بين الثقافة العربية والفارسية فى عصر بنى العباس، وتفرغ العلماء للبحث عن الصور البديعية والطريفة، فاكتشفوا الصور البديعية، ومنها الجناس.

وأول من تكلم عنه «ثعلب» (ت ٢٩١هـ) تحت اسم الطباق، وعرفه، وأول من عرَفه باسم التجنيس هو ابن المعتز (ت٢٩٦هـ)، وغلب عليه هذا الاسم، وظل يعرف به إلى يومنا.

* * *

حسن الجناس:

النقاد يرون فى الجناس - كأى محسن بديعى - جمالا موسيقيا، يطرب

---

(١) الخليقة: الخلق، نسل الريش ينسل: سقط، المعنى، إن كان فى خلقى مالا ترتضينه فاقطعى أمرى من أمرك، شبه ذلك بسقوط الطائر.

(٢) السليل: واد، وقد ساروا فيه سيرا سريعا، عبرة ما هم: أى هم سبب بكائى، «ما» زائدة، الأمم: بين القريب والبعيد، أى لو كانوا قريبين لزرتهم ولكنهم بعدوا، وجواب لو محذوف، أو هى للتمنى.

الأذن، إلا أنهم يرون أن تكون كالحلى، يروق منها القليل الذى يأتى فى الكلام إذا استدعاه المعنى، لا أن يقتسر، فإن فعل الشاعر أو الناثر ذلك كان متكلفا لا يحمد، ولهذا عابوا كثيرا من شعر أبى تمام، لإكثاره من تلك المحسنات.

والإمام عبد القاهر[1] يضع بحسه وذوقه المعيار، فيوصى الأديب أن يضع نصب عينيه المعنى أولا، لا أن يأتى بالتجنيس أو غيره من المحسنات فيضيع المعنى فى هذا السبيل، فيقول:

«أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنيهما من العقل موقعا جميلا، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا... أتُراك استضعفت تجنيس أبى تمام فى قوله:

ذهبتْ بمذهبه السماحةُ فالْتَوَتْ فيه الظُّنونُ أَمَذْهبٌ أم مُذْهِبُ[2]

واستحسنت تجنيس القائل: «حتى نجا من خوْفه وما نجا»[3] لأمر يرجع إلى اللفظ، أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت فى الأول، وقويت فى الثانى، ورأيت الأول لم يزدك بـ« مَذْهب ومُذْهب» على أن أسمعك حروفا مكررة، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة أو منكرة، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة وكأنه يخدْعك عن الفائدة وقد أعطاها.

فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لا يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، وما وجد فيه معيب مستهجن، ولذلك ذُم الإكثار منه، والوَلوع به.

---

(١) أسرار البلاغة (٧-١٠).

(٢) المعنى: ذهبت بذهابه السماحة حتى صارت فيه مثلا وحتى التبست على الناس، أهذه طريقته وعادته أم هو مهلك للمال ومبدد له؟» وفى «ذهبت بمذهبه» ملحق بالجناس.

(٣) نجا الأولى بمعنى أحدث، والثانية بمعنى خلص ونجا، وقيل أن صحة «خوفه» جوفه، والمعنى أن السهم نجا وخلص وما نجا الحمار الوحشى بل مات.

وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه، ومن هنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه، وذلك مثل قول الشافعى وقد سئل عن النبيذ، فقال: «أجمع أهل الحرمين على تحريمه»، وقول البحترى:

يعْشَى عن المجد الغبىُّ ولن تَرَى ... فى سُؤدُدٍ أَرَبًا لغير أَرِيبِ

وإن أنت تتبعته من الأثر وكلام النبى ﷺ تثق كل الثقة بوجودك له على الصفة التى قدمت، وذلك كقول النبى ﷺ: «الظلم ظُلماتٌ يوم القيامة». . فأنت لا تجد فى جميع ما ذكرت لفظا اجتلب من أجل السجع، ولذلك أنكر الأعرابى حين شكا إلى عامل الماء بقوله: «حُلِّئَتْ ركابى[1]، وشُقِّقَتْ ثيابى، وضُرِبَتْ صِحابى»، فقال العامل: «وتسجع أيضا» إنكار[2] العامل السجع، حتى قال: فكيف أقول؟ وذاك أنه لم يعلم أصلح لما أراد من هذه الألفاظ، ولم يَرَهُ بالسجع مخلا بمعنى، أو محدثا فى الكلام استكراها.

وقال الجاحظ: «لأنه لو قال حُلِّئَتْ إبلى، أو نوقى أو صرمتى[3]، لكان لم يعبِّر عن خفى معناه[4]

فقد تبين من هذه الجملة أن المعنى المقتضى اختصاص هذا النحو بالقبول، هو أن المتكلم لم يَقُد المعنى نحو التجنيس والسجع، بل قاده المعنى إليهما، حتى لو رام تركهما إلى خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعنى».

---

(١) الركاب: بالكسر المطى واحدتها راحلة من غير لفظها، أما الركوب بالفتح فهى الناقة التى تركب ثم استعيرت لكل ما يركب، حلئت الركاب بالتخفيف والتشديد: منعتها ورود الماء.

(٢) إنكار: مفعول لأنكر الأعرابى.

(٣) الصرمة: بالكسر القطعة من الإبل ما بين ٣٠ إلى ٤٠.

(٤) لأن الوصف مهم؛ لأن كونها مركوبة وتمنع الماء فى غاية الظلم.

صور الجناس:

١- **جناس تام**: ما اتفق فيه اللفظان المتجانسان فى أربعة أمور: نوع الحروف، وعددها، وهيئتها، وترتيبها.

كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ...﴾ [الروم: ٥٥].

فالساعة الأولى معناها القيامة، والثانية المراد بها الوقت (جزء من الزمن).

وقوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور].

فالأبصار الأولى جمع بسر - وهو النظر - والثانية جمع البصيرة - وهو العقل.

ومنه قول الشاعر:

وسميْتُه يَحْيى ليَحْيا فلم يَكُنْ ... إِلى رَدِّ أمر اللهِ فيهِ سبيلُ

وقالَ أبو تمام:

ماماتَ من كرم الزَّمان فإنه ... يَحْيَا لدى يَحْيَى بنِ عبد الله

والجناس التام قسمان:

(أ) **مماثل**: ما كان اللفظان فيه من نوع واحد اسمين أو فعلين أو حرفين.

فمثال الاسمين الآيتين السابقتين.

ومثال الفعلين قولهم: «فلان يضْرِبُ بالبيداء فلا يَضلّ، ويضْرِبُ فى الهيجاء فلا يكلّ»، فالضرب الأول: بمعنى قطع المسافة، والثانى بمعنى الحمل على الأعداء، ومثله قولهم: «لَمَّا قَالَ لديهم قَالَ لهم» فالأول من القيلولة والثانى من

القول. ومثال الحرفين قولهم: قد يجود الكريم، وقد يعثر الجواد، فإن (قد) الأولى للتكثير والثانية للتقليل.

(ب) مستوفىً: ما كان اللفظان فيه من نوعين كاسم وفعل، كالبيتين.

٢- غير تام: وهو ما اختلف فيه اللفظان فى واحد أو أكثر من الأمور الأربعة السابقة.

وهو أنواع:

(أ) الجناس الناقص: وهو ما اختلف اللفظان فى العدد، كقوله تعالى: ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القيامة].

وزيادة الحرف قد تكون فى الأول كالآية السابقة، وقد تكون فى الوسط كقولهم: جَدِّى جَهْدِى[1]، وإما فى الآخر، كقول أبى تمام:

يمدون من أيدٍ عواصٍ عواصمُ تصولُ بأسياف قواضٍ قواضبُ[2]

(ب) الجناس المصحف: ما تماثل اللفظان فى الخط، وتخالفا فى النقط، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الكهف].

وقوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء].

وقوله علية الصلاة والسلام: «قَصِّر من ثيابك فإنه أبقى، وأنقى، وأتقى».

(جـ) الجناس المحرف: ما تماثل اللفظان فى الحروف وتغايرا فى الحركات، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الصافات].

---

(١) الجد: الغنى، الجهد: التعب.

(٢) العواصى: جمع عاصية من عصاه يعصوه ضربه بالعصا، وعواصم: من عصمه إذا حفظه، وقواض: حاكمات بالقتل، وقواضب: قاطعات.

وقوله عليه الصلاة السلام: «اللهم كما حسنت خَلْقى فحسِّن خُلُقى»، وقولهم: «لا تنال الغُرَر إلا بركوب الغَرَر»(١).

(د) الجناس المقلوب ما تساوت حروف ركنيه عددا، وتخالفت ترتيبا، ومثاله فى القرآن قوله تعالى: ﴿ ... إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ... ﴾ [طه: ٩٤].

وقول الرسول - عليه الصلاةُ والسلام - «اللهم استر عوراْتنا، وآمن رَوْعاتنا»، وقول أبى تمام:

بيضُ الصَّفائحِ لاسودُ الصَّحائفِ فى متونهنِ جِلاء الشكِّ والرِّيب(٢)

(هـ) الجناسِ المضارع: وهو اختلاف الكلمتين فى نوع الحروف كقوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ﴾ [الهمزة].

وقوله: ﴿ ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۝٧٥ ﴾ [غافر].

وقوله: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ... ﴾ [النساء: ٨٣].

وقوله: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ﴾ [العاديات].

ويلحق بالجناس شيئان:

١- أن يجمعَ الاشتقاقُ اللفظين، بمعنى أن يجمعهما أصل واحد فى اللغة، كقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ... ﴾ [الروم: ٣٤].

فالأصل اللغوى لـ «أقم والقيم» واحد.

---

(١) الغرر: بالضم جمع أغر وهو الحسن من كل شىء، وبالفتح التعرض للهلكة.

(٢) الصفائح: جمع صفيحة وهو السيف، الصحائف: جمع صحيفة وهو الكتاب المسطور، المتون، جمع متن المقابل للحد، الجلاء: المادة التى تستعمل فى الجلاء، وبفتح الجيم الانكشاف والزوال.

ومنه قوله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ... ﴾ [البقرة: ٢٧٦].
فيربى والربا أصلهما واحد.

وقوله: ﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الواقعة][1].

ويسمى هذا الجناس المشتق.

٢- أن يجمع بين اللفظين شبه الاشتقاق، وذلك بأن يوجد فى كل من اللفظتين جميع ما فى الأخرى من الحروف أو أكثرها، لكن لا يرجعان إلى أصل واحد فى الاشتقاق، مثل قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [الشعراء].

فإن «قال» من القول، و«قالين» من القلى.

وقوله: ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤].

وقوله: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ... ﴾ [المائدة: ٣١].

وقوله عليه السلام: «أسلم سالمها الله، وغفارٌ غفر الله لها، وعُصَيَّةٌ عصَتْ الله ورسوله»، فإن «أسلم» ليست من المسالمة، ولا غفار من المغفرة، ولا عُصَيّة تصغير عصى من العصيان، بل هى أسماء قبائل مرتجلة لهم.

عربية الجناس:

رأى الدكتور إبراهيم سلامة أن أرسطو عَرَف الجناس، ومن حديثه يقول[2]:

«وأما التجنيس فقد ظهر فى كلام الجاحظ، وعده ابن المعتز من صنوف

(١) الروح: الرحمة. الريحان: الرزق.

(٢) الخطابة (٧٦- ٧٩)، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان.

البديع الأولى، وشواهده كثيرة في اللغة العربية بلاغة وأدبا، وقديما وحديثا، ونحسبه سما سلم للعرب... ولغتهم تساعدهم على استعماله، فأساسه ألفاظ مشتركه تتفق مبانيها، وتختلف معانيها اختلافا تاما أو ناقصا، واللغة العربية تحفظ كثيرا من هذه الكلمات، وهذه الكلمات تساعد على استعمال الجناس، بل إن من عرف اللغة، وذاق وقع الكلمات على أذنه ينطق بالجناس فى غير معاناة، تحقيقا للمبدأ النفسى المعروف «تداعى الألفاظ» و«تداعى المعانى».

لكن من يتاح له أن يقرأ «أرسطو» يصيبه ما أصابنا من الدهش حين يعلم أن المعلم الأول فكر في الجناس أيضا كما فكر فى غيره، يقول فى الفقرة السادسة من الفصل الحادى عشر من الكتاب الثالث للخطابة:

«إن معظم النكت البلاغية التى نلمحها فى الصورة والنقل بلاغتها فى المخاتلة التى يلجأ إليها الأديب: فإذا انتظرنا من الأديب معنى، فخاتلنا عليه ليأتى بمعنى آخر مضاد له، تأثرنا به وتأثرنا بكلامه أكثر من غيره، وكأننا من أثر هذه الدهشة وتلك المخاتلة نقول: ما أحق ما يقول، وما أصدقه! إننا نحن الذين أخطأنا الفهم لا الأديب».

ثم يقابل هذه الفقرة، بالفقرة التى قالها عبد القاهر فى الجناس، فيقول:

«ومقابلة بسيطة بين هذه الفقرة، وبين ما قاله عبد القاهر[١] خاصا بالجناس تدل بوضوح على تأثر عبد القاهر بالمعلم الأول.

والجناس فى نظر «أرسطو» تلاعب بالألفاظ، يقول عند تحليله لإحدى

---

(١) الأسرار (٤-٥) ومما يقول: «وإنما استحسنت هذا، لأنه قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك من الفائدة وقد أعطاها، فبهذه السريرة صار التجنيس من حلى الشعر ومذكورا فى أقسام البديع».

خطب «فيلب»: «إن الكلمة لم تحتفظ بمعناها الأول، لكنها تحملت معنى آخر عند إعادتها».

أليس هذا هو الجناس؟.

ثم يتساءل ويقول:

«أكان الجناس منقولا عن البلاغة اليونانية؟، أغلب الظن أنه كذلك، بل وكل الشواهد تدل على أنه كذلك.

ثم يصرح بفضل العرب، فيقول:

«ومع هذا كله يبقى للعرب فضلان:

أولهما: الدقة العلمية فى التقسيم والتحديد، ففقرات أرسطو لا تعبر عن الجناس وحده، بل تشمل الاستعارة، والطباق، والمقابلة.

ثانيهما: إيراد العرب شواهد مستمدة استمدادا مباشرا من أدبهم وآثارهم.

وتلك علامة يعتمد عليها الباحثون فى إثبات الأصالة والنقل.

فما يضير الأدب أن ننقل لفهمه قواعد ومعالم من نبض العقل، وأثارة من آثار الذكاء البشرى، والأمة الفطنة هى التى تستفيد من هذه الآثار العقلية، وإنما يضيره أن تنقل له قواعد ومثل غريبة عنه.

فنقل القاعدة ومَثَلِها عمل لا يدخل فى باب الفطنة العقلية، وليس من الذكاء فى شىء، ولكن نقل القاعدة والتصرف فيها بالتجديد والصقل حتى تنطبق على الآثار الأدبية الخاصة بالأمة، لا يقدح فى عقلية هذه الأمة، ولا فى ذكائها.

وكذلك فعل العرب حينما عرفوا، وحينما اطلعوا على البلاغة اليونانية، فقد نقلوا قواعد عامة، هى نبض الذكاء البشرى وطبقوها على أدبهم، وزادوا عليها بما أبرزها فى معرض الجديد المبتكر».

وقد أورد الدكتور الجندى هذا الرأى[1] ورده بأن الجناس فن عربى خالص على الرغم من عدم إنكاره تأثر العرب بآثار «أرسطو»، وعلل ذلك بعلل منها:

١- الجناس من البلاغة الفطرية التى تسرى على الألسنة بلا كد وتعمُّل.

٢- غزارة شواهده فى الأدب العربى قديما وحديثا.

٣- شغف العربى بالغناء والإيقاع - والجناس شعبة من ذلك.

٤- لم نعثر على شاهد من الجناس اليونانى فيما وصلنا من كلام العرب، على حين نجد شيئا من ذلك فى التشبيه والمجاز.

٥- تعريف الجناس وتقسيمه من صنع ابن المعتز، والقائلون بالنقل عن اليونانية معترفون بأنه لم يطلع على آثار «أرسطو».

* * *

وسيظل هذا الموضوع بين مد وجزر، ما دامت الحقيقة غير واضحة، والدليل الصريح غير قائم، وسيبقى الشك قائما حتى يقطعه اليقين؛ لأن الدلائل مازالت ظنية.

ولا يستطيع أحد أن ينكر عربية الجناس، كما لا يقوى أحد على الجزم بيونانيته، فاتفاق ما ورد عن الجناس فى البلاغة اليونانية مع ما ورد عن عبد القاهر فى البلاغة العربية لا يصحح القطع بالتأثر بالجانب اليونانى.

كما أننا نعلم أن الثقافة مائدة مشاعة، وكسب العلم والتفوق فيه فطرة النفوس، والاتصال بين الثقافات وأخذ بعضها من بعض طبيعة الفطرة، وشيمة النفس، وما يمنع أن يكون ذلك الاتفاق كان من توافق الخواطر، وتوارد الأفكار؟!.

بلاغة الجناس:

لاشك أن التجاوب الموسيقى الصادر من تماثل الكلمات تماثلا كاملا أو

(١) فن الجناس (١٤-١٧).

ناقصا تطرب له الأذن، وتهتز له أوتار القلوب، والمجنس يقصد اختلاب الأذهان، وخداع الأفكار، حيث يوهم أنه يعرض على السامع معنى مكررا أو لفظا مرددا لا يجنى منه السامع غير التطويل والسآمة، فإذا هو يروع ويعجب، ويأتى بمعنى مستحدث يغاير ما سبقه كل المغايرة، فتأخذ السامع الدهشة لتلك المفاجأة غير المتوقعة.

يقول عبد القاهر: «أتراكَ استحسنت تجنيس القائل، «حتى نجا من خوفه وما نجا»، وقول المُحْدِث:

نَاظِراه فيما جَنى نَاظِراهُ أَوْدَعانى أَمُتْ بما أَوْ دَعَانى[١]

لأنه قد أعاد عليك اللفظة، كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها، فبهذه السريرة صار التجنيس - وخصوصا المستوفى منه المتفق فى الصورة - من حلى الشعر، ومذكورا فى أقسام البديع»[٢].

والتجنيس لم يخرج عن نظرية «تداعى المعانى، وتداعى الألفاظ» فى علم النفس، وله أصله فى الدراسات النفسية، فالألفاظ متفقة كل الاتفاق أو بعضه فى الجرس، وهناك ألفاظ متقاربة أو متشابكة فى المعنى، بحيث تذكِّر الكلمة بأختها فى الجرس وأختها فى المعنى، وهذه الناحية النفسية هى التى تشرح لنا كيف يقع التجنيس للشاعر دون معاناة، إذا كان ملما بلغته، محسا بذوقها عالما بتصاريفها واشتقاقها.

فالدَّارِمِىُّ يعرف لغةً أن «الخَرْق» هو الصحراء الواسعة، ويعرف لغة أن الناقة التى تخرق الأرض تسمى «خَرْقَاء»، وهذه المعرفة للشاعر تدفعه إلى التجنيس فى لين وسهولة، فيقول:

---

(١) ناظراه من المناظرة والمناقشة، ناظراه (الثانية): العينان، أودعانى: اتركانى، أودعانى (الثانية): ادخلا على من السرور.

(٢) أسرار البلاغة (٤-٥).

وأقطع الخَرْقَ بالخَرْقاء لاهيةً إذا الكواكبُ كانتْ في الدُّنا سُرُجا

وجرير الذى يعرف أسرة خصمه «الفرزدق»، ويعرف من بين أجداده «عِقَال» و«حَابِس» فيعبث بصاحبه حين يراه مكتوفا لا تجرى يداه بندى، ويجرى لسانه بجناس طيع لين، ويقول:

فما زالَ معْقُولا عقالٌ عن النَّدى وما زال محْبوسًا عن المَجْدِ حَابِسُ

والفرزدق يعرف «خُفاف»، ويريد أن يهجوه فيذكر اسمه بالخِفّة، وهو يعلم أن أثقل السحب أرجاها للخير، وأن السحابة إذا خَفَّت جَفَّت، فيدعو على غريمه بأن يَخِفَّ الله السحابة العارضة فى رَبْعه، وأن يبدله بالساقيات السافيات الحواصب، فيقول:

«خِفَافٌ» أخفَّ الله عنه سَحَابَهُ وأوسعَهُ من كل سَافٍ وحَاصِبِ

والشعر ليس وحيدا فى هذه الملاحظة النفسية، بل يشركه النثر أيضا:

فالأعرابى يعرف كلمة «وجه» وكلمة «وجيه» فتخطر بباله إحداهما إذا ذكرت أختها أو ما يشابهها فى اللفظ أو فى المعنى خطورا طبيعيا أساسه الربط أو التداعى أو الجرس، لذلك يقول واصفا عبادا بليل: «ما تراهم إلا فى وجه وجيه»(١).

فالجناس له أساسه فى اللغة، وأصالته فى الذوق العربى، وله دوافعه فى الربط والتصور النفسى.

ولو قيل فى قوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾، «ويوم تقوم القيامة يقسم المجرمون ما لبثوا غير وقت قصير»، أليس فى هذا التغيير ما يفوت على السامع السر فى بلاغة الجناس، ويحرم السمع من هز أوتار الطرب، ويمنع القلب من المخاتلة وعنصر المفاجأة؟.

* * *

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ١١٧.

رد الأعجاز على الصدور

قال تعالى يخفف عن الرسول ﷺ ويواسيه: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام].

* * *

الآية الكريمة بدئت بـ﴿اسْتُهْزِئَ﴾، ثم ختمت بـ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ والكلمتان متفقتان فى اللفظ والمعنى، وكل كلام فى النثر أو بيت فى الشعر تم له هذا، سماه البلاغيون: «رَدُّ العَجُز على الصَّدر».

وهو فى النثر: جعل أحد اللفظين المكررين، أو المتجانسين، أو الملحقين بهما فى أول الفقرة، والآخر فى آخرها(١).

فالمكرران مثل قوله تعالى مخاطبا الرسول ﷺ: ﴿...وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ...﴾[الأحزاب: ٣٧].

وقول العرب: القتل أنفى للقتل.

والمتجانسان كقولهم: سائل اللئيم يرجع ودمعه سائل.

وما جمع بينهما الاشتقاق، كقوله تعالى: ﴿... اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح]، وقوله: ﴿... وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران].

وما جمعهما شبه الاشتقاق - وهو أن تكون الكلمتان الواردتان فى البداية والنهاية غير مشتقتين من كلمة واحدة، ولكن مصدر اشتقاقهما مختلف، كقوله

(١) المكرران: المتفقان فى اللفظ والمعنى، المتجانسان: المتفقان فى اللفظ دون المعنى، الملحقان بهما: الذى يجمعها الاشتقاق أو شبه الاشتقاق.

تعالى: ﴿قال إني لعملكم من القالين ﴿١٦٨﴾﴾ [الشعراء]، فـ«قـال» مشتق من «القول»، و«قالين» مشتق من «قلا» بمعنى «أبغض».

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت].

وقوله: ﴿... فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء].

* * *

أما في النظم: فاللفظان إما أن يكون أحدهما في أول الصدر، أو في حشوه، أو في آخر الصدر، أو في أول عجز البيت - واللفظ الآخر في آخر البيت، فتلك أربعة أقسام. واللفظان إما مكرران، أومتجانسان، أو ملحقان بالمتجانسين - وهما اللذان يجمعهما الاشتقاق أو شبهه - فتكون الصور على ذلك ست عشرة[1] حاصلة من ضرب أربعة في أربعة.

الأولى: ما كان اللفظان فيها مكررين: أحدهما في أول الصدر والآخر في آخر العَجُز، كقول الشاعر:

سريعٌ إلى ابْنِ العمِّ يشْتُمُ عِرْضَهَ ... وليس إلى داعى النَّدى بسريعِ

الثانية: وهى ما وقع فيه أحد اللفظين المتكررين فى آخر البيت، والثانى فى حشو الصدر، كقول الشاعر:

إذا لم تستَطعْ شيئًا فدَعْهُ ... وجاوِزْهُ إلى ما تَستَطيعُ

الثالثة: وهى ما وقع فيها أحد اللفظين المكررين فى آخر الصدر وآخر العجز، كقول جرير:

زعم الفرزدقُ أنْ سيقْتُل مِربْعًا ... أبْشِرْ بُطول سَلامة يا مِرْبع

(١) نتحدث عن اثنتى عشرة فقط ونترك الباقى وهى الألفاظ التى يجمعها شبه الاشتقاق لقلة استعمالها.

الرابعة: وهى ما وقع أحد اللفظين المكررين فى أول العجز وآخره، كقول كُثَيِّر عَزَّة:

أَصاب الرَّدى منْ كان يبغِى بها الرَّدَى وجُنَّ اللَّوَاتى قُلْنَ عزة جُنَّتِ

الخامسة: وهى ما وقع فيه اللفظان المتجانسان أحدهما فى أول الصدر والثانى فى آخر العجز، كقول الشاعر:

ذوائبُ سُودٌ كالعناقيد أُرْسِلَتْ فمن أَجلها منا النُّفوسُ ذَوائبُ(١)

السادسة: وهى ما وقع فيه أحد اللفظين المتجانسين فى حشو الصدر والآخر فى آخر العجز، كقول الثعالبى:

وإِذا البلابل أَفْصحَتْ بلُغاتِها فانْفِ البلابل باحْتساء بَلابل(٢)

السابعة: وهى ما وقع فيه أحد اللفظين المتجانسين فى آخر الصدر، والثانى فى آخر العجز، كقول الحريرى:

فمشْغوفٌ بآياتِ المَثَانى ومفتُونٌ برنَّاتِ المَثَانى(٣)

الثامنة: وهى ما وقع فيه أحد اللفظين المتجانسين فى آخر البيت، والثانى فى أول العجز، كقول الأرجانى:

أَمَّلْتُهم ثم تَأَمَّلْتهُمُ فَلاح لِى أَنْ ليس فيهم فلاحُ(٤)

---

(١) ذوائب (الأولى) جمع ذؤابة وهى أعلى شعر الرأس، وذوائب (الثانية) جمع ذائبة بمعنى سائلة.

(٢) البلابل الأولى جمع بلبل وهو طائر يضرب به المثل فى طلاقة اللسان، والثانية جمع بلبال وهو الهم، الثالثة: جمع بلبل وهذه قناة الإبريق التى يصب منها الخمر، أفصحت بلغاتها: أخلصت نغماتها، الاحتساء: الشرب.

(٣) المثانى: القرآن، رنات المثانى: نغمات أوتار المزامير.

(٤) أملتهم: رجوت خيرهم، تأملتهم: فكرت فى أحوالهم.

التاسعة: وهى ما وقع فيه أحد اللفظين اللذين يجمعهما الاشتقاق فى آخر الصدر، والثانى فى آخر العجز، كقول البحترى:

ضرائبُ أبْدعْتَها فى السَّماحِ … فلسْنا نرَى لك فيها ضَرِيبَا[1]

العاشرة: وهى ما وقع فيه أحد اللفظين اللذين يجمعهما الاشتقاق فى حشو صدر البيت، والآخر فى آخر العجز، كقول امرئ القيس:

إذا المرءُ لمْ يخْزُنْ عليه لسانُه … فليس على شىءٍ سواه بخزَّانِ[2]

الحادية عشرة: وهى ما وقع فيه أحد اللفظين اللذين يجمعهما الاشتقاق فى آخر الصدر، والثانى فى آخر العجز، كقول الشاعر:

فدعِ الوعيد فما وعيدُك ضَائِرِى … أطنينُ أجْنِحَةِ الذُّباب يَضير؟

الثانية عشرة: وهى ما وقع فيه أحد اللفظين اللذين يجمعهما الاشتقاق فى أول العجز، والثانى فى آخره، كقول أبى تمام:

وقد كانت البيضُ القواضبُ فى الوَغى … بَوَاتِرَ فهى الآن منْ بَعده بُتُر[3]

* * *

ولا يفوتنا أن نذكر أن ابن المعتز هو الذى سبق بالتعريف بهذا اللون البديعى، واستشهد له بشواهد من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشعرية للقدماء والمحدثين، وقسمه إلى ثلاثة أقسام فقط، وهى الصور: الأولى، والثالثة، والرابعة، من الصور السابقة.

---

(١) الضرائب: جمع ضريبة وهى ما طبع عليه الإنسان. والضريب: المثل.

(٢) لم يخزن: ولم يحفظ، المراد من اللسان السر، مجاز مرسل، والمعنى: إذا لم يحفظ الإنسان سر نفسه لم يحفظ سر غيره.

(٣) البواتر: القواطع، البتر: جمع أبتر وهو المقطوع أو مقطوع الذنب، والمراد أنها مقطوعة الفائدة بعد موته على الاستعارة.

بلاغته:

١- فيه نوع من الدلالة والتقرير: فالكلام الذى تردد ألفاظه، ويرجع بعضها إلى بعض، فيه تقرير وبيان وتدليل، فإذا قال الشاعر:

عميد بنى سليم أقصدته سهامُ الموت، وهى له سهام

فقد قرر المعنى، وكرر المأساة فى رثائه، فسهام الموت أقصدته ولم تبق عليه، وكان شجاعا لا يوجد فى جعبته إلا سهام الموت، فاعجب للموت ينزل به الموت، وللرجل يصاب بمثل سهمه أو يصاب بسهمه.

وإذا قال الآخر:

وما كل ذى لبٍّ بمؤتيك نصحَه وماكل مؤتٍ نصحَه بلبيب

أفادك هذا الرد والتكرار فائدة مزدوجة، فأنت أمام رجلين: لبيب حازم يضن بنصحه، وإمَّعَةٌ أخرق يتشادق بالنصيحة، ويتبرع بإسدائها، وأنت أمامها آسف على ضن الأول، عائب على تبرع الثانى، وكلا الرجلين فى الحياة يقف أحدهما من الآخر موقفا متضادا، فترى أحدهما مدبرا والآخر مقبلا، وأنت تجرى وراء المدبر، وتعرض عن المقبل، وفى كل هذا دلالات تتردد وتتكرر بتردد الألفاظ وتكرارها.

٢- رد الأعجاز على الصدور تذكير ورابط من روابط التذكر، ولذلك يستطيع السامع أن ينطق بالقافية الشعرية، أو بالشطر الأخير كله بمجرد سماعه الشطر الأول، مثل:

إذا لم تستطع شيئا فَدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

أو هذا البيت:

مشيناها خُطًى كُتبتْ علينا ومن كُتبتْ عليه خُطًى مشَاهَا

وليس هنا مجرد تكرار، بل يريد الشاعر الأول: إذا لم تستطع شيئا لا تقف مشلول الحركة بل تحرك إلى ما تستطيع عمله، ويقرر الثانى فى الشطر الأخير معنى فى حتمية القضاء والقدر لابد أن تخضع له[1].

* * *

(١) بلاغة «أرسطو» بين العرب واليونان (١٢٧).

براعة الاستهلال

قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ [التوبة].

* * *

سورة «التوبة» لـما كان سبب نزولها مقـاطعة الكفار، ومنابذة المـشركين، ونبذ عهودهم، بدئت بما يناسب ذلك من الأمـر بقتالهم، والإشارة إلى معاداتهم وإسقاط عهدهـم، فقال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ [التوبة]، «فأسقط البسملة الدالة على الرحمة، وابتدأ بالبراءة من المشركين مشيرا إلى نبذ عهـودهم وإعلانهم بغذابهم، وهذا ما يسمى، حسن الابتداء مع براعة الاستهلال.

وهو: أن يجعل المتكلم مبدأ كلامـه حسن الرصف، عذب اللفظ، صحيح المعنى، مع اشتـماله على الإشارة إلى المقصود، من تهـنئة أو مدح أو هجاء أو عتب.

ومن ذلك ابتـداء سورة الأنعام، وهو يشـير إشارة واضحـة إلى ما تضمـنته السورة.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام].

فى هذه الآية إشـارة إلى أمور ثلاثة: وصـف الله بالقدرة، وبالإنعـام على عباده، ثم إشراك الكـفار به، وهذه عناصر ثلاثة نجدها واضـحة كل الوضوح فى هذه السورة.

ومثـله من الشـعر قول أبى تـمام يهنـئ المعـتصم بفـتح عمُّـوريّة، مع أن المنجمين كانوا قد زعموا أنها لا تفتح فى ذلك الوقت:

السَّيْفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ   فى حدِّه الحَدُّ بين الجِدِّ واللَّعبِ[1]

فبدْؤه هذا يشير إلى فتح عمورية وبطلان قول المنجمين.

وقول عمارة اليمنى:

إذا لم يُسَالِمْك الزمان فحَاربِ   وباعدْ إذا لم تنْتَفِعْ بالأقارب

فابتداؤه هذا يشعر بأن القصيدة فى العتاب والشكوى.

وقول التهامى يرثى ولده:

حُكْمُ المنيةِ فى البريةِ جَارى   ما هذه الدنيا بدارِ قَرَارِ

فابتداؤه هذا يشير إلى أن موضوع القصيدة فى الرثاء.

* * *

وإذا خلا الكلام من الإشارة إلى المقصود منه، كان المحسن مقصورا على حسن الابتداء، وهو أول شىء يقرع الأسماع، لذلك يتعين على المتكلم النظر فى أحوال المخاطبين، ويتفقد ما يكرهون سماعه، ويتطيرون منه ليتجنب ذكره.

ومن جيد الابتداءات قول ابن نُبَاتة يهنئ سلطانا بتوليه الملك ويعزيه فى والده:

هَنَاءٌ مَحَا ذلك العزاءَ المقدَّمَا   فما عَبَس المحزونُ حتَّى تبسَّمَا

وقول البحترى:

بودِّى لوَ يْهوَى العذول ويعشَقُ   ليعلم أسباب الهوى كيف تعلَقُ

---

(١) الحد الأول: الجانب الحاد من السيف، والحد الثانى: الفاصل بين الشيئين، الصفائح: السيوف، الصحائف: الكتب، المتون: الجوانب المقابلة لحد السيف، فأبو تمام يتهكم بالمنجمين ويقول: إن السيوف أوثق فى تحقيق الرجاء.

وقول إسحاق الموصلى:

هل إلى أن تنام عينى سبيلُ ... إن عَهْدى بالنَّوم عهْدٌ طويلُ

لكن هذا الأديب دخل على المعتصم وقد فرغ من بناء قصره، فمدحه بقصيدة وجعل مطلعها:

يا دارُ غَيّركِ البلَى ومحَاكِ ... يا ليتَ شِعْرى ما الَّذى أبْلاكِ؟

فَخَبَا زِنَاده، وَكَبَا بِه جواده، وكان مطلعه من أسوأ المطالع، وتطير المعتصم من قبح هذا المطلع، وأمر بهدم القصر على الفور.

وهذا بلا شك غفلة من الشاعر ومن سوء توفيقه، ويدل على سقوطه حينما نسمع قول الأشجع السُّلَمى:

قصرٌ عليه تحيةٌ وسلامُ ... خلعتْ عليه جَمَالهَا الأيامُ

ودخل ذو الرمة على هشام بن عبد الملك بن مروان، فأنشده قوله:

ما بالُ عينكَ منها الماء ينسكبُ ... كأنه من كُلىً مفريّةٍ سربُ[1]

وكان به رمش - وهو حمرة فى الجفن مع ماء يسيل من العين - فظنه يعَرِّضُ به، فقال: بل من عينك، وأمر بإخراجه.

وأنشد البحترى يوسف بن محمد قصيدته التى أولها:

لك الويل من ليل تقاصر آخره ... .

فقال: بل لك الويل والخزى.

* * *

وعلى هذا فعلى المتحدث اللبق أن ينظر فى أحوال المخاطبين، ويختار لكل حال ما يناسبه.

---

(١) الكلى: جمع كلية - بضم الكاف. المفرية: المقطعة. السرب: الجارى.

والمثل الأعلى فى ذلك هو القرآن الكريم. وذلك كالتحميدات المفتتح بها أوائل السور، والابتداءات بالنداء، كقوله تعالى فى أول سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ...﴾ [النساء: ١]، وقوله تعالى فى أول سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، فإن هذا الابتداء مما يوقظ السامعين للإصغاء إليه.

وكذلك الابتداءات بالحروف، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ، طس، حم﴾، وغير ذلك فإن هذا أيضا يبعث الاستماع إليه؛ لأنه يقرع السمع شىء غريب ليس له بمثله عادة، فيكون سببا للتطلع نحوه والإصغاء إليه.

* * *

الباب الثاني

ملحقات لعلم البديع

البحث الأول:

البديع بين الذاتية والعرضية

البحث الثانى:

البديعيات

البحث الثالث:

السرقات الشعرية

* * *

البحث الأول

البديع بين الذاتية والعرضية

عرفنا أن السكاكى لم يخصص كلمة «بديع» بل لم يستعملها، وإن أطلق على أنواعه «المحسنات»، فبعد أن حصر البلاغة فى علمى «المعانى والبيان»، قال:

«وإذ تقرر أن البلاغة بمرجعيها «المعانى والبيان»، وأن الفصاحة بنوعيها مما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه أعلى درجات التحسين، فها هنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها وهى قسمان: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ. . . »(١).

ثم يمضى دون أن يطلق عليها اسم البديع.

ثم يمضى فيذكر ضمن الأصباغ المعنوية (الاعتراض)، ويمثل له بقول طرفة:

فسَقَى دِيَارَكِ - غيرَ مفسدِها　　　صوبُ الربيعِ وديمةٌ تَهْمِى

وذلك البيت هو الذى مثل به الخطيب للاحتراس، وجعله نوعا من أنواع الإطناب التى يقتضيها الحال، ثم يذكر الالتفات ويشير إلى أنه سبق أن ذكره فى علم المعانى، كما ذكر الإيجاز والإطناب مقتصر على التنبيه على سبق ذكره فى علم المعانى(٢).

«وعلى ضوء ذلك نستطيع أن نحكم بأن هذه الوجوه تعدل الفصاحة والبلاغة فى تحسين الكلام وتزيينه، وإذا كان التحسين الذى تعقبه الفصاحة والبلاغة فى الأساليب ذاتيا، فالتحسين الذى تعقبه هذه الوجوه فى الكلام كذلك»(٣).

---

(١) مفتاح العلوم ٢٠٠.　(٢) المرجع نفسه ٢٠٢.　(٣) الصبغ البديعى ٥٠٥.

ولم يطلق اسم «البديع» على المحسنات إلا بدر الدين بن مالك، وهو الذى هيأ لأن تصبح البلاغة متضمنة ثلاثة علوم.

ولما جاء الخطيب القزوينى لم يقف بالبديع عند هذا الحد بل قصره على ألوان خاصة، وفصله فصلا كاملا عن أخويه - المعانى والبيان - وأصبحت البلاغة فى عرف الخطيب ومن نحا نحوه محصورة فى علم «المعانى والبيان»، يقول:

«إن البلاغة فى الكلام مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ فى تأدية المعنى المراد وإلى تمييز الكلام الفصيح من غيره، وتمييز الكلام منه ما يكون فى علم متن اللغة، أو التصريف، أو النحو، أو يدرك بالحس(١)، وهو ما عدا التعقيد المعنوى، وما يحترز به عن الخطأ هو علم المعانى، وما يحترز به عن التعقيد المعنوى هو علم البيان، وما يعرف به وجوه التحسين هو علم البديع»(٢).

وعرف الخطيب البديع بقوله: «وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة»(٣).

ومع وضوح الخطيب فى أن مكان «البديع» من «المعانى والبيان» مكان التابع من المتبوع فقد اختلف العلماء فى بيان تلك المكانة، فممن تابع الخطيب وأيده فى تبعية البديع للمعانى والبيان الدسوقى، فقال تعليقا على كلام الخطيب:

«وحاصل كلامه أن تلك الأوجه إنما تعد محسنة للكلام إذا أتى بها بعد رعاية الأمرين: الأول مطابقة الكلام لمقتضى الحال. . ، والثانى وضوح الدلالة المبين فى علم البيان(٤).

ويقول صاحب المطول: وقوله بعد رعاية المطابقة ورعاية وضوح الدلالة للتنبيه على أن هذه الوجوه إنما تعد محسنة للكلام بعد رعاية الأمرين، وإلا لكان كتعلق الدرر على الخنازير»(٥).

---

(١) كالتنافر.

(٢) تلخيص المفتاح (٢٢).

(٣) المرجع نفسه (٣١٥)، مختصر المعانى (٣١٥).

(٤) حاشية الدسوقى على شرح السعد (جـ٤/ ٢٨٤).

(٥) المطول (٤١٦).

فالكلام السابق يشير إلى أن البديع من توابع البلاغة المقصورة على علمى «المعانى والبيان»، ويقول العصام: فى قوله «تتبعها»[1] تنبيهات:

أحدها: أن الوجوه البديعية لا تحسن بدون البلاغة.

ثانيها: أنه يجب تأخير علم البديع عن علم البلاغة.

ثالثها: أن الحسن الذى تورثه عرضى غير داخل فى حد البلاغة.

رابعها: أن هذه الوجوه إنما تكون من البديع إذا لم يقتضيها الحال، إذ لو اقتضاها الحال لم تكن تابعة للبلاغة»[2].

وممن عارض الخطيب معلنا أن تحسين «البديع» ذاتى وليس عرضيا: البهاءُ السبكى، فقد قال معلقا على تعريف الخطيب: «... بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة»:

«يحتمل أن يراد بعد معرفة رعاية تطبيقه ووضوح الدلالة، ويكون المراد: هو قواعد يعرف بها وجوه التحسين ووجوه التطبيق والوضوح، ومعرفة التطبيق والوضوح، سابقان على معرفة التحسين فيكون، «المعانى والبيان» جزءين للبديع، ويحتمل أنه قواعد يعرف بها بعد معرفة التطبيق والوضوح وجوه التحسين، فلا يكون «المعانى والبيان» جزءين للبديع، بل مقدمتين له، وقد صرحوا بأن المراد هو الأول، وفى استخراجه من منطوق عبارة المصنف عسر؛ لأنك إذا قلت: عرفت زيدا بعد معرفتى لعمرو، فالمخبر به معرفة زيد مقيدة بسبق معرفة عمرو، لا معرفة زيد وعمرو»[3].

كذلك أبو جعفر الغرناطى قال فى مقدمة شرح بديعية ابن جابر الأندلسى بعد شرح التعريف[4]:

---

(١) وردت هذه الكلمة فى تعريف البديع فى (تلخيص المفتاح) للخطيب القروينى.

(٢) الأطول (جـ١/ ٣٦).

(٣) عروس الأفراح (جـ٤/ ٢٨٣، ٢٨٤).

(٤) شرح أبو جعفر الغرناطى بديعية ابن جابر الأندلسى وسمى الشرح «طراز الحلة وشفاء الغلة» وهى نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم ٦٣ خصوصية بلاغة، وهى فى ٢٧٤ ورقة من القطع المتوسط وبدار الكتب ثلاث نسخ منها تحت أرقام (٢٥٧، ٢٥٨، ٢٨٢)، بلاغة. راجع مقدمة شرح بديعة ابن جابر الأندلسى، الصبغ البديعى ٥٠٠، وتوفى سنة ٧٧٩هـ.

«فتحصل من هذا الحد أن العلم بوجوه الكلام لا يسمى بديعا إلا بشرطين:

١- أن يكون ذلك الكلام مطابقا لمقتضى الحال.

٢- أن تكون كيفية طرق دلالته معلومة الوضوح والخفاء.

فالشرط الأول هو علم المعانى، والشرط الثانى هو علم البيان، فلو عدم الشرطان أو أحدهما من الكلام لم يكن العلم بوجوه تحسين ذلك الكلام بديعا.

وإذا تأملت ما ذكرناه من أن علم المعانى والبيان داخلان فى حد البديع علمت أن نسبته إليهما نسبة المركب إلى مفرداته، إذ لا يدخل فى الحد إلا ما هو من مفردات المحدود التى تركب منها».

ثم قال فى مكان آخر:

«قد تقدم أن البديع من (المعانى والبيان) نسبة المركب من المفرد، فكما أن المركب لا يستقيم وجوده إلا بوجود مفرداته كذلك البديع لا يستقيم إلا بوجود «المعانى والبيان» فإذا عدم المعانى والبيان من الكلام عدم البديع منه؛ لأن المركب يعدم بعدم مفرداته، فلو وجد كلام خال من مطابقة مقتضى الحال - الذى هو علم المعانى - أو من العلم بكيفية طرق الدلالة فى الظهور والخفاء - الذى هو علم البيان - لم يكن العلم بوجوه تحسين الكلام بديعا، مثال ذلك أنك لو قلت: إنّ يزيد ليزيدن ظلما، إذ أنَّ المظلوم من أذى - والحال لا يقتضى التأكيد، فلم يطابق مقتضى الحال، فعدم منه (المعانى)، ولا علمت كيفية طرق دلالته فى الوضوح والخفاء، إذا فرضنا أن المتكلم لم يكن عالما بالكيفيات المعتبرة فى ذلك - وهو الكناية والتشبيه والمجاز فعدم منه (علم البيان)، فلا يسمى العلم بوجوه تحسين الكلام فى هذا المقال (بديعا) وإن كان قد اشتمل على ما ترى من محاسن الجناس.

واعلم أن أعم هذه العلوم الثلاثة علم المعانى، وأخصها علم البديع؛ لأنه مركب من الفنين الآخرين وزيادة، والبيان متوسط بينهما، فهو مشتمل على المعانى، مندرج تحت البديع، فكل بديع مستلزم للمعانى والبيان لأنهما جزؤه

وكل بيان مستلزم للمعانى لأنها جزؤه، وليست المعانى مستلزمة للبيان؛ ولا للبديع إذ توجد بدونهما، وذلك فى كلام طابق مقتضى الحال ولم تعلم كيفية طرق دلالته ولا وجوه تحسينه، ولا البيان مستلزما للبديع إذ يوجد بدونه فى كلام طابق مقتضى الحال وعلمت كيفية طرق دلالته ولم يعلم وجوه تحسينه».

وليس فى مذهب السبكى وأبو جعفر الغرناطى غرابة أو بديع، فقد سبقهما فى ذلك الإمام عبد القاهر الجرجانى، إذ عدَّ من التحسين الذاتى (التقسيم والمزاوجة)، وجعلهما مع التشبيه المتعدد من باب (النظم الذى يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع)[1].

واقتفى أثر الشيخ عبد القاهر الفخر الرازى فأكمل هذه النظرة، وتمم هذه الخطة، وأدخل فى هذا الباب كثيرا من أنواع البديع: من مطابقة، ومقابلة، واعتراض، والتفات، واقتباس، وتلميح، ولف ونشر، وإيهام «تورية»، ومراعاة نظير، و«استتباع»، ومحتمل للضدين «توجيه»، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، وتجاهل العارف، والسؤال والجواب، والإغراق فى الصفة «المبالغة»، والجمع، والتفريق، وحسن التعليل. . . وغير ذلك مما ذكره».

ثم قال: «وقد اقتصرنا على هذا القدر من الأمور التى تربط الجمل بعضها بالبعض، وإن كان ما بقى أكثر مما أوردناه»[2].

على أن تعريف الخطيب للبديع لا يستند على دعائم عملية، فالمقسم، أو المزاوج، أو المطابق، أو المعلل، أو المبالغ، مثلا لم يلاحظ قبلية أو بعدية - كما لم يلاحظ المؤكِّد، أو الموجِز، أو المطنِب، أنه راعى ذلك بعد رعاية ما

(١) دلائل الإعجاز (٧٠).

(٢) انظر نهاية الإيجاز (١١٦).

يقتضيه علم الإعراب، وإن كان لابد من صحة التراكيب - وإنما يرمى إلى غرض كما يرمى الذى فصل أو وصل، ويقصد إلى هدف كما يصنع الذى شَبَّه، أو تجَوَّز، أو كَنَّى، دون هذه المراعاة الاعتبارية النظرية التى خبُّوا فى بيانها ووضعوا فلم يأتوا بشىء، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا»(١).

وقد فطن إلى ذلك البهاء السبكى، فقال:

«والحق الذى لا ينازع فيه منصف أن البديع لا يشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة، وأن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال، ومن الإيراد بطرق مختلفة، ومن وجوه التحسين، قد يوجد دون الآخرين، وأدل برهان على ذلك أنك لا تجدهم فى شىء من أمثلة البيان يتعرضون إلى بيان اشتمال شىء منها على التطبيق، ولا تجدهم فى شىء من أمثلة البديع يتعرضون لاشتماله على التطبيق والإيراد، بل تجد كثيرا منها خاليا من التشبيه والاستعارة والكناية التى هى طرق علم البيان، هذا هو الإنصاف وإن كان مخالفا لكلام الأكثرين»(٢).

وتعريف بلاغة الكلام الذى ذكره الخطيب بقوله: هى مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، يمكن أن يشمل الأصباغ البديعية إذا توسعنا فى مفهوم الحال بجعله أعم مما ذكروه حتى ينطبق على أحوال البديع.

فمثلا إذا اقتضى الحال طباقا، أو تقسيما، أو مزاوجة، أو غير ذلك كان الكلام المشتمل عليها مطابقا لمقتضى الحال، وخلوه منها غير مطابق، فيكون فى الأول بليغا، وفى الثانى على خلافه»(٣).

وهذا ما يتفق تماما مع ما نقلناه - سابقا - عن الإمام عبد القاهر.

كما أن هذا نفسه هو ما ذهب إليه أبو جعفر الغرناطى فى مقدمة شرحه لبديعية ابن جابر الأندلسى، حيث عرف البلاغة بقوله:

---

(١) الصبغ البديعى (٥٠١).

(٢) مواهب الفتاح (جـ٤/ ٢٨٤).

(٣) الصبغ البديعى (٥٠٧).

«هى بلوغ المتكلم فى تأدية المقصود الغاية من رعاية حسن اللفظ وتوفية المعنى بحسب اقتضاء المقام».

ثم قال: «وهى راجعة إلى ثلاثة أقسام. . . إلى ما يحترز به عن الخطأ فى خواص التركيب - وهو علم المعانى - وفى طرق دلالتها - وهو علم البيان - وفى وجوه تحسينها - وهو علم البديع - فالبلاغة إذن لا تحصل إلا لمن استكمل العلوم الثلاثة».

* * *

وعلى هذا فأصباغ البديع من البلاغة فى الصميم، ويحتل منها أكرم موضع وأعز مكان، وهذه هى بعض الشواهد القرآنية المشتملة على أنواع البديع لنرى فيها مدى ذاتية البديع.

فالجناس مثلا، وهو تشابه اللفظين فى النطق مع اختلافهما فى المعنى، يقول عبد القاهر محتجا للمعانى على الألفاظ: «وها هنا أقسام قد يتوهم فى بدء الفكرة وقبل إتمام العبرة أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس إلى ما يناجى فيه العقل النفس، ولها إذا حقق النظر مرجع إلى ذلك ومتصرف فيما هنالك، منها التجنيس والحشو[1]».

أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنيهما من الفعل موقعا حميدا، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا.

أتراك استضعفت تجنيس أبى تمام فى قوله - من قصيدة يمدح بها الحسن ابن وهب:

ذهبتْ بمذهبِه السماحةُ فالتوتْ ... فيه الظُّنون أَمذهبٌ أم مُذهِبُ[2]

واستحسنت تجنيس القائل: «حتى نجا من جوفه وما نجا»، وقول المحدث:

---

(1) سوى عبد القاهر بين التجنيس والحشو، وترى الخطيب يذكر الحشو ضمن مباحث الإطناب، ويذكر التجنيس فى البديع.

(2) المعنى: حتى نجا السهم من جوفه وما نجا الحمار الوحشى.

نَـاظِـرَاهُ فـيـمـا جَـنَـى نَـاظِـرَاهُ   أوْدَعَـانِـى أمُـتْ بمـا أوْدَعَـانِـى

لأمر يرجع إلى اللفظ، أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول، وقويت فى الثانى، ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفا مكررة تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة أو منكرة، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها، فبهذه السريرة صار التجنيس - وخصوصا المستوفى منه المتفق فى الصورة - من حلى الشعر ومذكورا فى أقسام البديع.

فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وجد فيه معيب مستهجن، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به...»[1].

فعبد القاهر يفصح عن فائدة الجناس بأنه: «حسن الفائدة مع توهم أن الصورة صورة التكرير والإعادة».

ونقل البهاء السبكى عن صاحب «كنز البلاغة»[2] قوله:

«لم أر من ذكر فائدة الجناس، وخطر لى أنها الميل إلى الإصغاء إليه، فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلا وإصغاء إليها؛ ولأن اللفظ المشترك إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد منه معنى آخر كان للنفس تشوف إليه».

ولا ريب أن المتكلم إذا راعى هاتين الفائدتين: إصغاء السامع وتشوفه واستشرافه فقد راعى موجبات البلاغة، واستجاب لمقتضى الحال، وتلك هى البلاغة.

وإذا كان الجناس يعيد اللفظة كأنه يخدع عن الفائدة وقد وفاها وأعطاها - كما قال عبد القاهر - أو يجذب إمالة السامع وإصغاءه - كما نقل السبكى - وكان

---

(١) أسرار البلاغة (٤، ٥).

(٢) مواهب الفتاح (جـ٤/ ٤١٢)، وصاحب كنز البلاغة هو - عماد الدين إسماعيل الأثير الحلبى، من علماء القرن الثامن الهجرى.

هذا من مقاصد البلاغيين وأهدافهم، فما ذلك إلا لأنه من صميم البلاغة ومن دواعى مقتضى الحال.

لكن ذلك بشرط أن يكون المعنى هو الذى يطلبه ويستدعيه، «وعلى الجملة فإنك لا تجد تجنيسا مقبولا - ولا سجعا حسنا - حتى يكون المعنى هو الذى طلبه واستدعاه، وساق المتكلم نحوه، وحتى تجده لا تبتغى به بدلا، ولا تجد عنه حولا، ومن هنا كان أحلى تجنيس نسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه، وتأهب لطلبه»[1].

ففى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ..﴾ [الروم: ٥٥].

وقوله تعالى فى أوصاف احتضار الكفار: ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة].

وقول الإمام الشافعى حينما سئل عن النبيذ، فقال: «أجمع أهل الحرمين على تحريمه».

نرى فى الجناس جمالا موسيقيا يطرب الأذن، ويضفى على المعنى التأثير البالغ، فيجذب السامع إليه، ويحدث فى نفسه الميل إلى الإصغاء والتلذذ بنغمته العذبة، كما أن فيه اختلاب الأذهان، وخداع الأفكار، حيث يوهم أنه يعرض على السامع معنى مكررا، أو لفظا مرددا، فإذا هو يروع ويعجب ويدهش السامع، وكل ذلك يعود على المعنى بالتمكين فى ذهن السامع، فهو من صميم البلاغة ومن مقتضيات الأحوال.

* * *

ومثل الجناس السجع، بقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى].

---

(١) أسرار البلاغة (٧).

فمفعول «قلى» محذوف لرعاية الفاصلة فى ﴿سجى، والأولى﴾، هكذا درج بعض العلماء، واقتصروا على ذلك.

لكن هناك جانبا معنويا يلاحظ فى الآية يجعل السجع من مقتضيات البلاغة ومما يستدعيه المقام، إذ حذف المفعول الذى ترتب عليه وجود السجع جعل الكلام نموذجا رائعا من أدب الخطاب فى التنزيل الحكيم لئلا يواجه الرسول ﷺ بنسبة القلى إليه - وإن كان فى كلام منفى- لطفا به وتحننا عليه.

أو لنفى صدور القلى عنه - عز وجل - بالنسبة له ﷺ.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾(١) [السجدة].

فأتى فى الآية الأولى بـ﴿يَهْدِ لَهُمْ﴾، وختمها بـ﴿يَسْمَعُونَ﴾؛ لأن الموعظة فيها مسموعة، وهى أخبار القرون الأولى.

وأتى فى الثانية بـ﴿يروْا﴾، وختمها بـ﴿يبصرون﴾؛ لأن الموعظة مرئية.

فنحن نرى أن ليس هناك كلمة اجتلبت لأجل السجع، وتُرك ما هو أحق بالمعنى منه، وإنما كان السجع لأجل المعنى، والفائدة التى بيناها.

وإذا كان للسجع فائدة، ولموضعه بلاغة، وله تأثير فى النفوس، ويخامر العقول لما يحدثه من النغمة المؤثرة، والموسيقى المطربة التى تهش منها النفس، وتطرب لها الأذن، فيتمكن المعنى فى الأذهان، ويقر فى النفوس.

وإذا كان هذا مما يقصده البلاغيون وذوو البيان واللسن، كان السجع مما يقتضيه البلاغة ويستدعيه الحال.

* * *

وكذلك التقسيم فى قوله تعالى: ﴿... هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا

---

(١) يهدلهم: يبين لهم. الجرز: التى لا تنبت،أو أكل نباتها،أو لم يصبها مطر.

أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة].

فالآية الأولى استوعبت جميع الأوصاف المحمودة، إذْ وصَفَ المؤمنين فيها بجميع العبادات؛ لأن العبادات نوعان: بدنية ومالية، والبدنية قسمان: عبادة الباطن وعبادة الظاهر، والمالية قسمان: ما يشترك فيه المال والبدن كالحج والجهاد، وما ينفرد به المال كالزكاة وصدقة التطوع على اختلاف أصنافها، فقوله تعالى: ﴿**يؤمنون بالغيب**﴾، إشارة إلى عبادة الباطن؛ لأن الإيمان التصديق وهو من أعمال القلب، وقوله سبحانه: ﴿**ويقيمون الصلاة**﴾: تصريح بعبادة الظاهر. وقوله: ﴿**ومما رزقناهم ينفقون**﴾ إشارة إلى العبادة المالية، فاستوعبت جميع الأقسام على الترتيب.

وأما الآية الثانية فاستوعبت جميع أقسام الزمان، فإن إيمان هؤلاء المؤمنين بما أنزل إلى الرسول ﷺ إيمان فى الحال، وما أنزل من قبله فى الماضى، وإيمانهم بالآخرة إيمان بالاستقبال، ثم زاد إيمانهم بالآخرة وصفا، إذ أخبر أنه إيمان متيقن، ليدل بذلك على قوة تصديقهم للنبى ﷺ ووثوقهم بأن ما أخبر بوقوعه سيقع يقينا لا شك فيه ولا شبهة(1).

فالغرض من هذه الآية بيان صفات المتقين وأوصافهم الكاملة التى بها يستحقون كامل الهدى، وكل الفلاح.

وإذا كان المراد الإتيان على هذه الحال بالتبيين، كان هذا الصنيع مما يقتضيه المقام، ويستدعيه الحال، وقد سبق أن عبد القاهر عد التقسيم - وخصوصا إذا قُسِّمتْ وجُمِعتْ(2) - من باب (النظم الذى يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع).

* * *

ومن هنا نرى أن تحسين البديع ذاتى وليس عرضيا، وأنه من موجبات البلاغة ويستدعيه مقتضى الحال، وبالرجوع إلى أنواعه السابقة تزداد بهذا وثوقا.

* * *

---

(1) بديع القرآن ٦٩.

(2) أى الشواهد والأمثلة.

البحث الثانى

البديعيات[1]

منذ القرن السابع الهجرى وقد رُمى الشعر العربى بجماعة مهمتها جمع ألوان البديع، وسلكوا فى جمعها مسالك التكلف، ووجهوا همتهم إلى رَصِّ ألوانه ضاربين صفحا عما ينبغى أن يراعى فى الشعر من مقتضيات أهمها إبراز المعنى وتجلية الغرض، وجاءوا بشعر مؤلف من تفعيلات وموازين لا يروق لفظها ولا يفهم معناها، وسموا تلك القصائد بالبديعيات.

فالبديعيات: قصائد اشتمل كل بيت منها على لون أو أكثر من ألوان البديع، تمثيلا فقط، أو مضموما إليه التزام التورية باسمه، فهى منظومات فى «البديع» تشبه ألفية ابن مالك فى النحو، أو الشاطبية فى القراءات.

وأول من سبق إلى هذه البديعيات هو شاعر مصرى أشار إليه الكتبى (ت٧٦٤هـ)، صاحب فوات الوفيات[2]، وهو على بن عثمان بن على بن سليمان الأربلى[3] الصوفى الشاعر (ت٦٧٠هـ).

ومن شعره فى بديعيته مشيرا إلى اللون البديعي قوله:

بعْضُ هذا الدَّلالِ والإدلالِ ... حَالى الهَجْرُ والتجنُّب حَالِى

(الجناس اللفظى)

رِقّ ياقَاسِي الفؤاد لأجْفا ... نِ قصارٍ أسْرى ليالٍ طِوَالِ

(الطباق)

---

(١) كتب أستاذنا الدكتور أحمد موسى فصلا ممتعا عن البديعات فى كتابه «الصبغ البديعى ٣٧٠» فارجع إليه فهو أصل فيه.

(٢) فوات الوفيات (جـ٢/ ٥٧).

(٣) أصله من أربل وإليه نسب كما فى أعلام الزركلى.

وهكذا يرويها ابن شاكر الكتبى وعد منها ستة وثلاثين بيتا، وقد اشتمل كل بيت منها على نوع من أنواع البديع كتب إلى جانبه.

وقد بدأها السليمانى بالغزل، ثم خلص منه إلى مدح شخص غير معروف.

* * *

بديعية صفى الدين الحلِّى (ت٧٥٠هـ)، حيث نظم بديعيته فى مدح الرسول ﷺ معارضا بها بردة البوصيرى محاكيا لها فى وزنها ورويها وغرضها، وزاد عليها الاحتفال بالبديع، وجعل فى كل بيت منها مثالا لنوع أو أكثر من البديع، وقد اشتملت على مائة وخمسة وأربعين بيتا، بها مائة وخمسون نوعا من ألوانه، وقد أشار إلى أنه استعان بسبعين كتابا فى تأليف بديعيته.

وقد تناول كل ألوان البلاغة تحت اسم «البديع»، ولم يفصل بين علوم البلاغة، كما فعل السكاكى.

ومن بديعيته:

إن جئت سلعًا فسل عن جِيَرة العَلِم
واقر السَّلام على عربٍ بذِى سلم

(براعة المطلع والتجنيس المركب والمطلق)

* * *

بديعية ابن جابر الأندلسى وهو أندلسى فى نشأته وثقافته، ثم رحل إلى البلاد المصرية، وهو معاصر للصفى الحلى، ونظم بديعيته «الحلة السيرا[1] فى مدح خير الورى»، وشرحها صاحبه ومعاصره أبو جعفر الغرناطى شرحا سماه «طراز الحلة وشفاء الغلة».

---

(١) السيراء: نوع من البرود فيه خطوط صفر أو يخالطه حرير.

وقد عرض ابن جابر لألوان البديع التى ذكرها الخطيب القزوينى فى كتابيه (التلخيص والإيضاح)، وفى تلك البديعية علامة مميزة عن باقى البديعيات.

١- فابن جابر فَصَل فى بديعيته بين ألوان البديع اللفظية والمعنوية ولم يخلط بينهما كما صنع أصحاب البديعيات جميعا.

٢- اقتصاره على أبواب البديع التى ذكرها الخطيب وتنحية المسائل التى عرفت عنده وعند السكاكى باسم «علم البيان» عن بديعيته.

وقد وقعت هذه البديعية فى مائة وسبعة وعشرين بيتا، ومن أولها:

بِطيبةَ انزلْ ويمِّمْ سيِّد الأُمَمِ وانثُر له المدْحَ، وانشُر أطيبَ الكَلِمِ

(براعة استهلال)

وابذلْ دموعَك، واعذلْ كلَّ مصْطَبِرِ والحق بمن سَار والحَظْ ما على القَلم

(الجناس اللاحق)

* * *

بديعية عز الدين الموصلى (ت٧٨٩هـ)، كان من أهل الموصل، وعدد أبياتها مائة وخمسة وأربعون بيتا، يقول فى مطلعها مشيرا إلى (براعة الاستهلال):

براعةٌ تستهلُّ الدمعَ فى العَلِم عبارة عن نداء المفرد العلم

وهو أول من شرع للبديعيات التقيد بالتزام التورية باسم النوع البديعى، فزاد ذلك الالتزام ثقلا إلى ثقلها.

* * *

بديعية ابن حجة الحموى (ت٨٣٧هـ)، نشأ بحماة، ونظم بديعيته على طريقة شيخه عز الدين الموصلى، وسماها «تقديم أبى بكر»، وشرحها شرحا حافلا سماه «خزانة الأدب وغاية الأرب».

وقد وقعت هذه البديعية فى مائة واثنين وأربعين بيتا مشتملة على مثلها من أنواع البديع، يقول مشيرا إلى الطباق:

بوَحْشةٍ بدلوا أُنسِـي وقد خفضوا قـدْرى وزادوا عُلُوًا فى طِـباقِـهم[1]

ويقول مشيرا إلى التمثيل:

وقلـت،ردفُك مـوج كـى أمـثلـه بالموج، قال: قد استَسْمَنْتَ ذَا وَرَمٍ[2]

* * *

وما زالت نزعة البديعيات غالبة على الشعراء حتى فى زمن النهضة الحديثة. فالشاعر: محمود صفوت الشهير بالساعاتى، مصرى المولد والنشأة (ت١٢٩٨هـ) نظم بديعـية اشتملت علـى مائة وخمسين نـوعا من ألوان البديع فى مـائة واثنين وأربعين بيتا، معارضا بها بديعية ابن حـجة ملتزما ما التزمه من التورية باسم النوع البديعى، ومن أولها:

سفَح الدموعَ لذكـرِ السَّفْح والعلِم أبْدَى البَـراعـة فى استـهـلالِـه بِدَمِ

(براعة استهلال)

وكم بكيتُ عَـقِيقًا والـبكاء على بَـدْرٍ، وتَوْرِيـتـى كـانـت لـبـدرِهـم

(تورية)

وقـد شرحـها الأديـب عبـد الله باشـا فكرى وزيـر المـعارف المـصرية (ت١٣٠٧هـ) شرحا حافلا.

* * *

قيمتها الأدبية والعلمية:

هذه هى البديعيـات التى استبدت بالشعر منذ أواسط القـرن السابع الهجرى إلى القـرن الرابع عشر، وهـى منذ أن ولدت إلى أن انتـهت صناعة من الـعبث، أضعـفت من الشعـر، وأوردته موارد التكـلف، وهوت به إلى هاوية الإسـفاف، وجردته من روائعه وروعته.

ومن ناحيتهـا العلمية: فإنها ذهـبت بالبديع مذاهب الـتشعيب، فعـاد عليه

---

(١) خزانة الأدب (٨٥).

(٢) خزانة الأدب (١٦٧).

بالضعة والهوان، فالبديعيات - وإن جهد العلماء فى شرحها - فقد عدوا من البديع ما لا يصح أن يكون منه، وأكثروا منه إلى حد الإملال، وقد غرست فى كثير من الأذهان أن أنواع البديع لا يقف عند حد.

فقد كتب عليها الإخفاق فى ناحيتها الأدبية والعلمية، فلم تصل إلى غايتها ولم تؤد رسالتها.

* * *

البحث الثالث

السرقات الشعرية

المعانى قد تكون مشتركة وعامة يقصدها كل الناس بدون تمييز، وذلك كتشبيه الحسن بالشمس والبدر، والجواد بالغيث والبحر، والشجاع الماضى بالسيف، والصَّب المستهام بالسقيم فى أنينه والسليم فى قهره، ونحو ذلك مما هو مقرر فى البدائه، ومركب فى النفس تركيب الخلقة، وتتوارد عليه الخواطر.

فمتى جاء الأخذ على هذا لم يعد من المعايب، ولم يخص من جملة المثالب، ولعل هذا ما عناه عنترة بقوله:

مـا نَـرانا نَـقولُ إلا مُـعَاراَ   أو مُـعَادًا مـن قـولـنا مكْـرُورَا

وهناك معان لا تنال إلا بفكر، ولا ينتهى إليها إلا بنظر وتدبر، ولا يصل إليها المتحدث إلا بطلب واجتهاد، فهذا هو ما يُدَّعى فيه السبق والاختصاص، وذلك مما يوجد المجال فسيحا للتفاضل بين قائل وقائل، فيقول: إن هذا يفضل ذاك ويزيد عليه، وإن فلانا قد قَصَّر عن فلان، ومثل ذلك كقول أبى تمام يمدح أحمد بن المعتصم:

إقدام عُـمْرٍو، فى سماحةِ حاتم   فى حِلْمِ أحْنَفَ، فى ذكاءِ إياسِ

فقال الحكيم الهندى: وأى فخر فى تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب فأطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين معتذرا عن تشبيهه إياه بعمرو وحاتم وإياس:

لا تُنْكِروا ضَـرْبِى لَهُ مَنْ دونه   مثلا شرودًا فى النَّدى والبَاسِ

فالله قد ضرب الأقل لنوره   مثلا من المشكاة والنِّبْراسِ

فمن أتى بعده بهذا المعنى، أو بجزء منه، فإنه يكون سارقا له.

ويقول القاضى الجرجانى: «ولم تزل العامة والخاصة تشبه الورد بالخدود

والخدود بالورد - نثرا ونظما - وتقول فيه الشعراء فتكثر، وهو من الباب الذى لا يمكن ادعاء السرقة فيه إلا بتناول زيادة تضم إليه، أو معنى يشفع به، كقول على ابن الجهم:

عشيّةَ حيَّانى بوردٍ كأنَّهُ   خدودٌ أضيفتْ بعضُهنّ إلى بَعْضِ

فإضافة بعضهن إلى بعض له، وإن أخذ فمنه يؤخذ، وإليه ينسب[1]».

ومن أبرز الموضوعات التى عنيت بها كتب البلاغة والنقد موضوع السرقات الشعرية، وقد قسموها إلى أقسام، منها:

١- النسخ: وهو أخذ اللفظ والمعنى جميعا، أو أخذ المعنى وأكثر اللفظ، مأخوذ من نسخ الكتاب، ويسمى (وقوع الحافر على الحافر) وهذا مذموم مردود؛ لأنه سرقة محضة.

فقد رُوى لأوس بن حجر، ولزهير بن أبى سلمى، هذا البيت:

إذا أنْتَ لم تَعرضْ عن الجَهْلِ والخَنا   أصبْتَ حليمًا، أو أصابَك جاهلُ[2]

وقال الفرزدق:

أتعدلُ أحسابًا لِئامًا حُماتها   بأحسابنا، إنّى إلى الله راجعُ

وقال جرير:

أتعدل أحسابا كراما حماتها   بأحسابكم، إنى إلى الله راجع

وروى للأبيرد اليربوعى:

فتًى يشتَرِى حُسْنَ الثناءِ بمالهِ   إذا السَّنة الشهباءُ أُعوزَها القَطْرُ[3]

ولأبى نواس:

فتى يشترى حسن الثناء بماله   ويعلم أنَّ الدائراتِ تَدورُ[4]

---

(١) الوساطة (جـ١/ ١٣٩ط صبيح).

(٢) لم تعرض: لم تنصرف. الخنا: الفحش: الحليم: العاقل. والمراد أصبحت حليما بجهلك أو أصابك جاهل بجهله.

(٣) الشهباء: المجدبة، أعوزها القطر: احتاجت إليه.

(٤) الدائرات: الدواهى، تدور: تتقلب.

وقال بعض المتقدمين يمدح معبدا:

أجادَ طويسٌ والسريجى بعده   وما قصباتُ السَّبقْ إلا لِمَعْبدِ(١)

ثم قال أبو تمام:

محاسنُ أصنافِ المغنِّين جَمَّةٌ   وما قصبات السبق إلا لمعبد

وقد يكون المعنى الثانى أبلغ من الأول لاختصاصه بفضيلة، كحسن السبك، أو الاختصار، أو الإيضاح، أو زيادة معنى، وهذا مقبول ممدوح، كقول بشار:

منْ راقبَ الناس لمْ يظفرْ بحاجتهِ   وفازَ بالطيباتِ الفاتكُ اللَّهِجُ

أخذه سلم الخاسر - وكان تلميذه - فقال:

من راقب الناس مات غَمًّا   وفاز باللَّذَّةِ الجَسُورُ(٢)

فالم ى فى البيتين واحد، ولكن بيت سلم أخصر بلفظتين، وقد شهد بشار بتفوق بيت سلم على بيته، ولذلك غضب منه، وقال: ذهب والله بيتى، فهو أخف منه وأعذب، والله لا أكلت ولا شربت اليوم.

ويعلق القاضى الجرجانى على قول ابن المعتز:

بياضٌ فى جوانبهِ احمرارُ   كما احمرَّتْ من الخَجَلِ الوُرودُ

الخَجِل إنما يحمر وجنتاه، فأما منبت الأصداغ، ومحط العذار فقليلا ما يحمران، فهذا التمييز مسلم له، وإن لم يسبق إليه، ولو اتفق له أن يقول: حمرة فى جوانبها بياض، لكان قد طبق المفصل، وأصاب الغرض، ووافق شبه

---

(١) طويس، السريجى، معبد: مغنيون، قصبات السبق: هى التى تنصب فى حلبة السباق، فمن سبق اقتلعها وأخذها يعرف أنه السابق، وهو كناية عن الفوز والغلبة.

(٢) رتب بشار على مراقبة الناس عدم الظفر بالحاجة فى حين رتب سلم عليها الموت غما.

الخَجِل، لكن أراد أن البياض والحمرة يجتمعان، فجعل الاحمرار فى جوانب البياض، فراغ عن موقع التشبيه، ثم قال أبو سعيد المخزومى:

والوردُ فيه كأنَّما أوْرَاقُهُ ... نُزِعَتْ ورُدَّ مكانَهُنّ خدودُ

فلم يزد على التشبيه المجرد، لكنه كساه هذا اللفظ الرشيق، فصرت إذا قسته إلى غيره ووجدت المعنى واحدا، ثم أحسست فى نفسك عنده هزة، ووجدت طربة، تعلم لها أنه انفرد بفضيلة لم ينازع فيها»(١).

وإن كان المعنى الثانى دون الأول فى البلاغة فهو مذموم ومردود، كقول أبى تمام:

هيهات يأتى الزمانُ بمثلهِ ... إن الزمانَ بمثله لَبخيلُ(٢)

وقول أبى الطيب:

أعدى الزمانَ سخاؤُه فسخَا به ... ولقد يكون به الزمان بخيلا(٣)

فمصراع بيت أبى تمام أحسن سبكا من مصراع أبى الطيب، أراد أن يقول: كان الزمان به بخيلا فعدل عن الماضى إلى المضارع للوزن.

٢- السلخ: وهو أخذ المعنى وحده - وهو أدق السرقات مذهبا، وأحسنها صورة، وهو أنواع:

(أ) أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ولا يكون هو إياه، كقول بعض شعراء الحماسة:

لقد زادنى حُبًّا لنفسى أنَّنِى ... بغيضٌ إلى كل امرئٍ غير طَائلِ

---

(١) الوساطة (جـ١/ ١٣٩).

(٢) هيهات: اسم فعل بمعنى بعد، والمعنى بعُد إتيانُ الزمان بمثله.

(٣) أعدى: فعل ماض من الإعداء وهو تجاوز الشيء من صاحبه إلى غيره، المعنى: أن الزمان كان بخيلا به عليه فلما أعداه سخاؤه جاد عليه به فأسعده بصحبته.

أخذ المتنبى هذا المعنى واستخرج منه معنى آخر غيره إلا أنه شبيه به.

فقال:

وإذا أتتك مذَّمتى من ناقصٍ ... فهى الشهادة لى بأنِّى فَاضلُ

والمعرفة بأن هذا المعنى أصله من ذاك المعنى عسر غامض، وهو غير متبين إلا لمن أعرق فى ممارسة الأشعار، وغاص فى استخراج المعانى، وبيانه:

أن الأول يقول: إن بُغض الذى هو غير طائل إياى مما زاد نفسى حبا إلىّ، أى جّملها فى عينى، وحسنها عندى كونُ الذى هو غير طائل مبغضى.

والمتنبى يقول: إن ذم الناقص إياى شاهد بفضلى، فذم الناقص إياه كبغض الذى هو غير طائل ذلك الرجل.

وكقول أبى تمام:

رَعتْه الفَيافى بعْدَ ما كان حِقْبةً ... رعَاها، وماءُ الروض ينْهلُّ ساكِبُهْ[1]

أخذ البحترى هذا المعنى واستخرج منه ما يشبهه، كقوله:

شيْخَان قد ثَقُل السلاح عليهما ... وعَدَاهما رأىُ السميع المُبْصرِ

رَكِبَا القنا من بعد ما حملا القنا ... فى عسكرٍ متحاملٍ فى عسكر[2]

فأبو تمام ذكر أن الجمل رعى الأرض ثم سار فيها فرعته، أى أهزلته، فكأنها فعلت به مثل ما فعل بها، والبحترى نقل هذا إلى وصف الرجل يعلوه السن والهرم، فقال: إنه كان يحمل الرمح فى القتال، ثم صار يركب عليه، أى يتوكأ منه على عصا، كما يفعل الشيخ الكبير»[3].

---

(١) يريد أن مركوبه هزل بعدما كان سمينا بسبب سيره فى المعارك فكأنها رعته بعد ما رعى نبتها.

(٢) المعنى: هذان البطلان بعد أن كانا يحملان القنا للقتال جعلتهما الشيخوخة يتخذان من القنا عصيانا يدبان عليها فصارا محمولين بعد أن كانا حاملين.

(٣) انظر المثل السائر (جـ٣/ ٢٣٥)، ديوان البحترى (جـ٢/ ١٠٣٢).

(ب) أن يأخذ المعنى فيزيد عليه ويكسوه عبارة أحسن من العبارة الأولى، كقول أبى تمام:

جذلانَ من ظفَرٍ، حَرَّان أن رَجَعَتْ   مخضوبةً منكم أظفارُه بدم

أخذه البحترى، فقال:

إذا احتربَتْ يوما ففاضتْ دماؤُها   تذكّرت القُرْبَى ففاضَتْ دُمُوعها[1]

ومنه قول البحترى:

تصدُّ حياءً أن تَراك بأوجهٍ   أتى الذنب عاصيها فليم مُطيعها[2]

أخذه أبو الطيب فأحسن سبكه، فقال:

وجُرم جَرَّهُ سُفهاءُ قومٍ   وحَلَّ بغير جارِمه العذابُ[3]

فبيت أبى الطيب أحسن سبكا، وكأنه اقتبسه من قوله تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥].

(جـ) أن يؤخذ المعنى فيعكس، كقول أبى الشيص:

أجِدُ الملامةَ فى هَواكِ لذيذةً   شَغفًا لذكرك، فليَلُمْنى اللُّوَّمُ

أخذ هذا المعنى أبو الطيب وعكسه، فقال:

أأحِبُّه وأحُبُّ فيه ملامةً   إنّ الملامةَ فيه من أعدائِه[4]

فأبو الشيص جعل الملامة محبوبة لأنها تذكره بالحبيب، أما المتنبى فقد

---

(١) الضمير فى «احتربت وتذكرت» عائد على الفرسان المقاتلين من الجانبين.

(٢) تصد: تصرف، وفاعله ضمير يعود على بنى تغلب، وفاعل (تراك) يعود على المتوكل الممدوح، لِيمَ: مبنى للمجهول من اللوم والقول.

(٣) الجرم: الذنب، جره: ارتكبه. الجارم: الكاسب.

(٤) المعنى: كيف أحبه مع حبى فيه الملامة، فأنا أحبه فقط، فالاستفهام للإنكار، والإنكار ملاحظ فيه القيد.

كرهها لأنه لا يستطيع أن يحب صاحبه ويحب اللوم فيه؛ لأن لومه لا يكون إلا من أعدائه.

ومنه قول أبى تمام:

كريمٌ متى أمدحه أمدحْهُ والوَرَى مَعِي وإذا مَا لُمْتُه لمتهُ وحْدِي

أخذه ابن طاهر، فعكسه، فقال:

يشتركُ العالمُ فى ذَمِّهِ لكننى أمدحه وحْدى

وهذه الأنواع أكثرها مقبولة، وكلما كان الأخذ أشد خفاء كان أقرب إلى القبول.

* * *

وقد وصل النقاد المدققون - أمثال الآمدى والقاضى الجرجانى إلى المبادئ الآتية:

١- لا سرقة فى المعنى العام، ولا فى الخاص الذى أصبح كالعام المشترك لكثرة شيوعه.

٢- لا سرقة فى الألفاظ العامة المتداولة.

ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد، بل أخذ العلماء يقسمون السرقات إلى أنواع، وحددت تحديدا تحكميا لاغناء فيه ولا نفع.

وقد أحصى ابن رشيق، بعض تلك الأنواع نقلا عن الحاتمى فى «حلية المحاضرة»[1]، فقال:

«وقد أتى الحاتمى فى «حلية المحاضرة» بألقاب محدثة تدبرتها، وليس لها محصول إذا حققت، كالاصطراف، والاجتلاب، والانتحال، والاهتدام،

---

(١) العمدة (جـ ٢/ ٢١٥)، (٢١٦).

والإغارة، والمرافدة، والاستلحاق - وكلها قريب قد استعمل بعضها فى مكان بعض».

ثم يورد تعاريف تلك الاصطلاحات، فيقول:

الاصطراف: أن يعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه فإن صرفه إليه على جملة المثل فهو اجتلاب، واستلحاق، وإن ادعاه جملة فهو انتحال، ولا يقال: «منتحل» إلا لمن ادعى شعرا لغيره وهو يقول الشعر، وأما إن كان لا يقول الشعر فهو مدع غير منتحل، وإن كان الشعر لشاعر أخذ منه غلبة فتلك الإغارة والغصب، فإن أخذه هبة فتلك المرافدة، ويقال: الاسترفاد، فإن كانت السرقة فيما دون البيت فذلك هو الاهتدام، ويسمى أيضا النسخ، فإن تساوى المعنيان دون اللفظ وخفى الأخذ، فذلك النظر والملاحظة، وكذلك إن تضادا ودل أحدهما على الآخر، ومنهم من يجعل هذا هو الإلمام، فإن حول المعنى من نسيب إلى مدح فذلك الاختلاس، ويسمى أيضا: نقل المعنى، فإن أخذ بنية الكلام فقط فتلك الموازنة، فإن جعل مكان كل لفظة ضدها، فذلك هو العكس، فإن صح أن الشاعر لم يسمع بقول الآخر، وكانا فى عصر فتلك المواردة، وإن ألف البيت من أبيات وقد ركب بعضها من بعض فذلك هو الالتقاط والتلفيق، وبعضهم يسميه الاجتذاب والتركيب» ثم يورد ابن رشيق أمثلة لكل ذلك.

كذلك ابن الأثير كتب فصلا طويلا[1] عن السرقات، واعتمد فيه على التقسيمات يدقق فيها ويبدع، وكان همه الأول - على الرغم من أنه أشار إلى جهود النقاد السابقين - إظهار البراعة فى التبويب والتقسيم.

ودراسة السرقات دراسة منهجية لم تظهر - غالبا - إلا منذ ظهور (أبى تمام) وقامت حوله الخصومة، وقد كان النقاد السابقون المجردون عن الهوى

(١) المثل السائر (٢٠٨-٢٩٢).

والغرض يطلقــون ألفاظا أخرى عليهـا «كالأخذ»: نجد ذلك عند ابن قتـيبة فى «الشعر والشعراء»، و«السلخ» الكلمة التى استعملها صاحب الأغانى[1].

وأما لفظة السرقـات فقد شاعت وسط الخصومة حول أبـى تمام بين أنصار القديم وأنصار الحديث، وكان أول كتاب ألف بـهذا العنوان - فيما نعلم - كتاب عبد الله بن المعـتز (سرقات الشعراء)، ثم تلت ذلك كتـب: فألف أحمد بن أبى طاهر، وأحمد بن عمار (سرقات أبى تمام)، وكـتب أبو الضياء بشر بن تميم كتابا فى (سرقات البحترى من أبى تمام)، وكذلك كتب مهلهل بن يموت فى (سرقات أبى نواس).

* * *

وَتَأَمُّلٌ فـى نظرية (النـظم) عند عـبد القـاهر يعطـينا تصـورا آخر فى فـهم السرقات، يجعلنا نتوقف قليلا قبل إصـدار حكم بالسرقة على شاعر ما، أو نسمه بالاختلاس أو النسخ.

فيجب أن نفرق بين التشابه فى المـعنى أو التماثل فى الفكرة، وبين السرقة الفعلية، كـما يجب أن نعلم أن أصالة الشاعر لا تكون إلا فـى الإشعاعات الدالة والظلال الموحـية، وفى الفروق الدقيـقة التى تطوى فى الأثر الفـنى، وتكمن فى النص الأدبى، فقد تتشابه الفكرتان، أو تتماثل الاستعارة عند شاعرين، ومع ذلك تبلغ عند أحدهما ما لا تبلغه عند الآخر، وذلك لمـا يضيفه الشاعر فى تعبيره من خصائص، فـليس هناك تعبير يـمكن أن يتساوى هو وتعبـير آخر مهما اتـفقا فى المعنى أو فى الفكرة، فإضافة كلمة، أو حذف أخرى، أو تقديم اسم على فعل، أو تأخير مبتدأ عن خبر، أو تعريف كلمة أو تنكيرها، أو إظهار لها أو إضمار، أو استعـمال أسلوب معيـن من أساليب النهى أو الاسـتفهام، أو النفى، وغـيره من أساليب اللغة - كل ذلك من شأنه أن يلون الـعبارة الأدبية بألوان جديدة، ويضفى

(١) تاريخ النقد عند العرب (١٧٦).

عليها معانى حديثة، ويكشف بها الأديب من معان نفسية، وتحمل ما يعانيه من مشاعر وتجارب إلى الناس.

وقد كشف عبد القاهر وهو بصدد الحديث عن (النظم) عن كثير من الأسرار الكامنة فى عوامل الصياغة، وكيف أن تغييرا فيها ولو يسيرا يمكنه أن يحمل من المعانى، ويرفع القيمة الجمالية والفنية إلى مستوى لم يكن للكلام أن يبلغه لولا هذا التغيير، وقد ضرب لنا الأمثلة الكثيرة على ذلك، يقول فى أحدها:

«ومن دقيق ذلك وخفيه، أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]، لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها، ولم يروا للمزية موجبا سواها، هكذا ترى الأمر فى ظاهر كلامهم.

وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجليلة وهذه الروعة التى تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة، ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشىء وهو لما هو من سببه، فيرفع به ما يسند إليه، ويؤتى بالذى الفعل له فى المعنى منصوبا بعده مبينا أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثانى، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة، كقولهم: طابَ زيدٌ نفسًا، وقَرّ عمروٌ عينا، وتصبَّبَ عرقا، وكَرُم أهلا، وحَسُن وجهًا، وأشباه ذلك مما تجد فيه الفعل منقولا عن الشىء إلى ما ذلك الشىء من سببه.

وذلك أنا نعلم أن (اشتعل) للشيب فى المعنى، وإن كان هو للرأس، فى اللفظ كما أن (طاب) للنفس، و(قر) للعين، و(تصبب) للعرق، وإن أسند كما أسند إليه، يبين أن الشرف كان لأنه سلك به هذا المسلك، وتوخى به هذا

(١) دلائل الإعجاز (٧٥-٧٧).

المذهب، أن تدع هذا الطريق فيه، وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحا، فتقول: اشتعل شيب الرأس، أو الشيب فى الرأس، ثم تنظر، هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة؟ وهل ترى الروعة التى كنت تراها؟.

فإن قلت: فما السبب فى أن كان «اشتعل» إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل، ولم بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة؟.

فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب فى الرأس الذى هو أصل المعنى الشمول، وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استقربه، وعم جملته، حتى لم يبق من السواد شىء، أو لم يبق منه إلا مالا يعتد به، وهذا مالا يكون إذا قيل: اشتعل شيب الرأس، أو الشيب فى الرأس، بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة.

ووزان هذا أنك تقول: اشتعل البيت نارا، فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول، وأنها قد استولت عليه، وأخذت فى طرفيه ووسطه، وتقول: اشتعلت النار فى البيت، فلا يفيد ذلك، بل لا يقتضى أكثر من وقوعها فيه وإصابتها جانبا منه، فأما الشمول وأن تكون قد استولت على البيت وابتزته فلا يعقل من اللفظ البتة.

واعلم أن فى الآية شيئا آخر من جنس النظم - وهو تعريف الرأس بالألف واللام، وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة، وهو أحد ما أوجب المزية، ولو قيل: واشتعل رأسى، فصرح بالإضافة - لذهب ببعض الحسن».

وقد حرصنا على أن نسوق هذا الشاهد كاملا؛ لأنه ليس هناك أوضح منه على منهج عبد القاهر فى تحليله للصورة البيانية، وفى النظرة الشاملة التى ينظر فيها عبد القاهر إلى اللغة، فاللغة عنده وحدة لا تنفصل فيها الصورة الشعرية عن التعبير الأدبى بل هى جزء لا يتجزأ، ولا تكتسب فضيلتها إلا من السياق، ولا تستمد قوتها إلا من النظم، ففهم الاستعارة وتفسير معناها لا يمكن تحقيقه إلا بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته.

وإذا كان تغيير واحد فى موضع معين من الكلام أمكنه أن يحمل إلى القارئ كل هذه المشاعر، وأن يلون الآية الكريمة بلون خاص، ويجعلها قادرة على أن

تبلغ تأثيرها المطلوب - فما بالنا بعوامل الصياغة الأخرى؟. وما أكثر هذا، وقد قدم عبد القاهر أمثلة تكشف النقاب عن حقيقة هامة، وهى أن كل مزية أو فضيلة فى الكلام إنما مردها إلى خصائص معينة فى نظم النص وصياغته.

وهذه الحقيقة التى بسطناها حكم صادق على موضوع السرقات الشعرية التى طال الخلاف فيها والحديث حولها، فإن مجرد التشابه فى المعنى أو التماثل فى الفكرة، أو فى صور البديع لا يكفى بالإدانة بالسرقة، ما دامت العبرة بصياغة الفكرة وبما يضيفه النظم على النص من خصائص لا بالفكرة نفسها والمعنى فى ذاته.

وقد سبق أن عرفنا فى تحليل عبد القاهر للآية الكريمة كيف أن استعارة الاشتعال للشيب ليست كل ما فى الآية من روعة؛ لأن الاستعارة نفسها تتوافر فى أكثر من تعبير، ومع ذلك نكتسب من كل تعبير على حدة معنى خاصا وتأثيرا مختلفا، ففى كل من ﴿**اشتعل الرأس شيبا**﴾، «واشتعل الشيبُ فى الرأس»، «واشتعل شيب الرأس»، فمع توافر الاستعارة فى كل جملة من الجمل الثلاث وظيفة ودلالة وتأثير يخالف الأخرى.

وعلى ضوء هذا التحليل الذى بسطه عبد القاهر، وعلى ضوء فكرة النظم عنده - نتنهى إلى حقيقة لا سبيل إلى الشك فيها، وهى أن الفن ليس فى الفكرة، ولا فى المعنى الأخلاقى الفلسفى، ولا فى المضمون بعامة مهما تكن قيمة هذا المضمون، وإنما الفن فى تطويع الشكل للمضمون والمضمون للشكل، وفى إخضاع التجربة للصورة اللفظية.

على هذا الأساس السليم لمعنى الخلق الأدبى يكون مجال النقد الأدبى منصبا إلى حد كبير على ما يكون فى داخل الأثر الفنى من علاقات تنشأ من الصياغة وترتد إليها، وعلى هذا الأساس لا يتم تشابه، أو تشاكل، أو ترادف، فى صورتين لشاعرين، أو تعبيرين أدبيين لكاتبين مختلفين إلا إذا نقل الآخر عبارة الأول نقلا كاملا دون أن يشير إلى مصدر النقل، عندئذ، وعندئذ فقط يكون الأخير سارقا من الأول.

ومن ثم فإن التوليد الذى هو: أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر سبقه أو تقدمه، ويحاول أن يتأثر به ويزيد عليه لا يصح أن يسمى سرقة؛ ذلك لأننا مع اعترافنا بما فى التوليد من الاقتداء بالغير والاقتباس منه - فإن صياغة المعنيين هما وحدهما اللذان يجددان قيمة كل منهما ومدى ما أضافه الآخر إلى الأول، وقد تحول هذه الإضافات الجديدة المعنى تحويلا كاملا، بل إن تحويرا صغيرا فى العبارة قد يرفع قيمتها درجة عالية من السمو»(١).

والواقع أنه من الواجب أن نميز بين أشياء، فهناك:

١- **الاستيحاء**: وهو أن يأتى الشاعر أو الكاتب بمعان جديدة تستند عليها مطالعاته فيما كتب غيره.

٢- **استعارة الهياكل**: كأن يأخذ الشاعر أو الكاتب موضوع قصيدته أو قصته عن أسطورة شعبية أو خبر تاريخى، ويبث الحياة فى هذا الهيكل حتى ليكاد يخلقه من العدم.

٣- **التأثير**: وهو أن يأخذ كاتب أو شاعر بمذهب غيره فى الفن أو الأسلوب، وقد يكون هذا التأثر تتلمذا، كما قد يكون عن غير وعى، وإنما النقد هو الذى يكشف عنه.

٤- **وأخيرا هناك السرقات**: وهذه لا تطلق اليوم إلا على أخذ جمل أو أفكار أصلية وانتحالها بنصها دون الإشارة إلى مأخذها، وهذا قليل الحدوث فى العصر الحديث وبخاصة فى البلاد المستنيرة»(٢).

* * *

وبعد:

﴿ ... رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ، رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا ، وَاغْفِرْ لَنَا ، وَارْحَمْنَا ، أَنتَ مَوْلانَا ، فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) ﴾ [البقرة].

* * *

(١) قضايا النقد الأدبى والبلاغة (٣٧٩).

(٢) النقد المنهجى عند العرب (٣٥٣، ٣٥٤).

المراجع

أولا: القرآن الكريم.

ثانيا: المخطوطات.

١- شرح المفتاح — للسيد الجرجانى بدار الكتب رقم ٢٥ بلاغة

٢- طراز الحلة وشفاء الغلة — لأبى جعفر الغرناطى بمكتبة الأزهر رقم ٦٣ خصوصية - بلاغة، وهو شرح البديعية لابن جابر الأندلسى.

ثالثا: المطبوعات:

٣- أسرار البلاغة — عبد القاهر الجرجانى

٤- الإتقان فى علوم القرآن — للسيوطى

٥- الأغانى — للأصفهانى

٦- أساس البلاغة — للزمخشرى

٧- إعجاز القرآن — للباقلانى

٨- الأعلام — للزركلى

٩- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية — للرافعى

١٠- الأسلوب — للأستاذ الشايب

١١- الإيضاح — للقزوينى - ضمن شروح التلخيص

١٢- ألحان الأصيل — د - على الجندى

١٣- أنوار الربيع — لابن معصوم المدنى

١٤- الأقصى القريب — للتنوخى

١٥- الأطول — للعصام

١٦- أسرار التكرار فى القرآن — للكرمانى - تحقيق عبد القادر أحمد عطا - ط دار الاعتصام.

١٧- الإشارة الإيجاز فى بعض أنواع المجاز — للعز بن عبد السلام - ط دار الفكر بدمشق
١٨- البيان والتبيين — للجاحظ
١٩- البيان فى ضوء أساليب القرآنى — د- عبد الفتاح لاشين ط دار المعارف
٢٠- البديع — لابن المعتز
٢١- بلاغة العرب بين أرسطو واليونان — د- إبراهيم سلامة
٢٢- البلاغة تطور وتاريخ — د- شوقى ضعيف
٢٣- «بلاغة القرآن فى تفسير الكشاف» — د- محمد أبو موسى ط دار الفكر
٢٤- البرهان فى وجوه البيان - نقد النثر — لابن وهب
٢٥- البلاغة والفلسفة — الشيخ أمين الخولى
٢٦- بديع القرآن — لابن أبى الإصبع - تحقيق - دحفنى شرف
٢٧- البحر المحيط — أبو حيان الأندلسى - الرياض
٢٨- بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار — د- عبد الفتاح لاشين ط دار الفكر
٢٩- البهاء السبكى - وآراؤه البلاغية والنقدية — د- عبد الفتاح لاشين
٣٠- تاج العروس
٣١- تلخيص المفتاح — للقزوينى
٣٢- تحرير التحبير — لابن أبى الإصبع تحقيق - د حفنى شرف
٣٣- تفسير أبى السعود
٣٤- تفسير القرطبى
٣٥- تفسير ابن كثير
٣٦- تاريخ الطبرى
٣٧- ثمار القلوب — للثعالبى

٣٨- جمهرة خطب العرب | للأستاذ صفوت
٣٩- حسن التوسل | للحلبى
٤٠- حاشية الدسوقى - ضمن شروح التلخيص
٤١- حاشية المرشدى على عقود الجمان
٤٢- خزان الأدب | لابن حجة الحموى
٤٣- الخطابة | د/ إبراهيم سلامة
٤٤- خطوات التفسير البيانى | د/ رجب البيومى
٤٥- ديوان حسان
٤٦- ديوان الفرزدق
٤٧- ديوان المتنبى
٤٨- دلائل الإعجاز | عبد القاهر الجرجانى
٤٩- ديوان البحترى
٥٠- دراسات فى علم النفس الأدبى | الأستاذ حامد عبد القادر
٥١- درة التنزيل | للخطيب الإسكافى - بيروت
٥٢- روح المعانى | للألوسى
٥٣- الزمخشرى | د/ أحمد الحوفى
٥٤- زهر الربيع | الشيخ أحمد الحملاوى
٥٥- السيرة الحلبية | لابن برهان الدين الحلبى
٥٦- سر الفصاحة | لابن سنان
٥٧- شرح نهج البلاغة | لابن أبى الحديد
٥٨- الصناعتين | لأبى هلال العسكرى
٥٩- الصيغ البديعى | د/ أحمد موسى
٦٠- الصور البديعية | د/ حفنى شرف

٦١- الصبح المنبى عن حيثية المتنبى	للبديعى
٦٢- الصحاح	للجوهرى
٦٣- صبح الأعشى	للقلقشندى
٦٤- الطراز	للعلوى ط دار الكتب
٦٥- العمدة	لابن رشيق (ط أمين هندية)
٦٦- علوم البلاغة	للشيخ أحمد المراغى
٦٧- عروس الأفراح - ضمن شروح التلخيص	للبهاء السبكى
٦٨- عقود الجمان	للسيوطى
٦٩- فلسفة البلاغة	للأستاذ جبر ضومط
٧٠- الفلك الدائر على المثل السائر	لابن أبى الحديد
٧١- فن الأسجاع	د/ على الجندى
٧٢- فوات الوفيات	للكتبى
٧٣- الفوائد الغياثية	للمولى عصام
٧٤- فكرة النظم بين وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم	د/ فتحى أحمد عامر
٧٥- القاموس المحيط	للفيروز بادى
٧٦- قدامة بن جعفر والنقد الأدبى	د/ بدوى بادى
٧٧- القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه	للأستاذ عبد الكريم الخطيب
٧٨- قضايا النقد الأدبى والبلاغة	د/ محمد زكى العشماوى
٧٩- الكشاف	للزمخشرى
٨٠- الكامل	للمبرد ط التجارية
٨١- لسان العرب	لابن منظور
٨٢- مقدمة إعجاز القرآن	للأستاذ سيد صقر

٨٣- مفتاح العلوم للسكاكى
٨٤- المعانى فى ضوء أساليب القرآن د/ عبد الفتاح لاشين
٨٥- مختارات الشعر الجاهلى الأستاذ / مصطفى السقا
٨٦- المواهب الفتحية للشيخ حمزة فتح الله
٨٧- مناهج تجديد للأستاذ أمين الخولى
٨٨- مسائل فلسفة الفن المعاصرة للأستاذ الدروبى
٨٩- المثل السائر لابن الأثير
٩٠- مواهب الفتاح - ضمن شروح التلخيص للمغربى
٩١- معترك الأقران للسيوطى تحقيق البجاوى - دار الفكر
٩٢- الموطأ لابن مالك
٩٣- المختصر للتفتازانى
٩٤- المطول للتفتازانى
٩٥- النقد المنهجى عند العرب د/ مندور
٩٦- النظم القرآني في كشاف الزمخشري
٩٧- الوساطة للقاضى الجرجانى ط صبيح
٩٨- يتيمة الدهر للثعالبى

* * *

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة	٣
مصطلح «البديع»	٥
لمحة عن تطوره	٥
نشأة البديع: عند ابن المعتز، عند قدامة، عند السكاكى، مناقشة من قال بأن الزمخشرى هو الذى جعل البديع تابعا لعلم المعانى والبيان.	٨
الباب الأول	
المحسنات البديعية	٢١
الفصل الأول	
المحسنات المعنوية	٢٥
الطباق - الطباق الحقيقى، والطباق المجازى، طباق الإيجاب وطباق السلب.	٢٥
الطباق الخفى والطباق المرشح	٣١
المقابلة - الفرق بين الطباق والمقابلة	٣٤
ائتلاف اللفظ مع اللفظ - مراعاة النظير.	٣٨
ائتلاف اللفظ مع المعنى	٥١
الإبداع	٥٦
المبالغة - أقسامها	٦٣

الاستطراد	٧٢
المذهب الكلامى	٧٥
المشاكلة.	٧٨
تجاهل العارف.	٨٢
تأكيد المدح بما يشبه الذم - أنواعه	٨٦
تأكيد الذم بما يشبه المدح - أنواعه	٨٩
اللف والنشر	٩١
صحة الأقسام	٩٤
الجمع	٩٩
التفريق	٩٩
الجمع مع التفريق	١٠٠
الجمع مع التقسيم	١٠٠
الجمع مع التفريق والتقسيم	١٠١
الاستقصاء	١٠٣
التوجيه	١٠٦
التورية - أقسامها	١١١
الاستخدام - صوره	١١٥
المزاوجة	١١٧
حسن التعليل	١١٩
التجريد - صوره	١٢٢
الاستدراج	١٢٤

الفصل الثانى

المحسنات اللفظية ١٢٧

السجع ١٢٧

السجـع فى عصور اللغـة - أنواعه - فقـر السجع - استـقلال السجـعة بمعناهـا - منزلة السجع من الـبلاغة - الحسـن اللفظى والمعنوى للسجع

لزوم مالا يلزم ١٥٦

الجناس ١٥٨

الجناس فى عـصور اللغة - حسن الجنـاس - صور الجناس - ملحق الجناس - عربية الجناس - بلاغة الجناس

رد الأعجاز على الصدور ١٧٢

براعة الاستهلال ١٧٧

الباب الثانى

ملحقات لعلم البديع ١٨١

البحث الأول - البديع بين الذاتية والعرضية ١٨٣

البحث الثانى - البديعيات ١٩٥

البحث الثالث - السرقات الشعرية ٢٠١

المراجع ٢١٥

محتويات الكتاب ٢١٧

* * *

رقم الإيداع	١٣٢٣٠/ ٩٨
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 10 - 1172- 3